معراج الطير الحبيس

الحقوق كافة محفوظة لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: aru@net.sy

E-mail : unecriv@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

عبد الفتاح رواس قلعه جي

معراج الطير الحبيس

نص روائي

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2004

إهداء

عندما ولدت فكرة هذا النص الروائي – الملحمي، سقطت الروح في بُحران الحيرة والخوف والقلق، من مهالك الطريق، ووجدتني أغوص في بحر المواجد والأسرار باحثاً عن اللؤلؤ المكنون في أصداف الأسماء.

وما من محارة شققت عن مكنونها إلا وجدت فيها ابن الخليفة مظلوماً أو معذباً أو حبيساً أو مقهوراً أو جائعاً ! ولكنني في كل هذه الظلامات المحيطة بالإنسان المجتبى كنت أنفذ إلى روحه المتوقدة بالسرائر الربانية فأجد تلك الجوهرة التي أشربت بالأنوار الشارقة اللذيذة، فشعّت وأعمت بأنوارها عيون من استُخلفوا فخالفوا، وحكموا فجاروا، وأعطوا فمَنعوا، فكانت نفوسهم عتيّة كتيمة كلبيَّة، لا همّ لها إلاّ أن تلغ في الدماء والنقاء، مؤثّلـة بالمال والسلطان، تقطع الطريق على السالكين، وتسرق منهم رغيف الكرامة وأسرار الطريق.

ولأن الطريق إلى الله يمر بالإنسان

يوم تأتي ساعة لا ترى في السماء غيره ، ولا في الأرض غيرك

كان المعراج هدية الرحمن

إلى حبيبه المصطفى

بعد الأشجان

وها أنذا..

إلى ابن الخليفة – الإنسان

المنوَّر بالحكمة

المحاصر بالقهر والمعاناة والأحزان

الطاعم خبز المستضعفين الصابرين
المحروم من سلافة السلوان
أهدي هذا المعراج

***

معراج الألـف

1

استيقظت "**حم**" [1] من نومها في ليلة مباركة طلع بدرها، وتهاطلت أنوارها من شرفات الصفات، وعزفت نجومها موسيقى الصمت على أوتار الحضور.

رفعت رأسها، وأجالت الطرف في أنحاء البيت الذي درست جدرانه فلم يبق منه غير سقف مرفوع وباب موضوع بلا مزلاج. بحثت عن ابنها فلم تره في البيت فأدركت أن الريش قد بدأ يكسو جناحيه، وأنه لابد لـه أن يتعلم الطيران، فتأهبت للفراق، وراحت تناديه للعناق، والدموع في عينيها ترسل أعذب النغمات.

كنت في روضة عنقاء، أجمع طاقة من الزهور الحمراء والبيضاء، حين سمعت نداء "حـم"، فهرعت إلى فرس الفجر وامتطيته، وأطلقت لـه العنان.

فرد فرس الفجر جناحيه، وطوى بي المسافات متجهاً نحو مصدر النداء. وفي الطريق الطويلة امتشقْت نجمة الصبح ورحت أسوق أمامي قطعاً من الليل حتى إذا برز النهار لاستقبالي من خباء "حيّ على الفلاح" كنت قد وصلت الديار وقرعت باب الدار.

ـ أيتها الروح المفارقة أمها ما الذي أخرك عني ؟

هكذا قالت "حـم" وهي تغزل بصنارتين من فرح الأمومة قميصاً لابنها.

ـ كنت أجمع لك طاقة من الزهور الملونة.

قلت هذا ومددت يدي إلى السلة لأقدم لها ما جمعت منذ الصباح فلم أجد غير نجوم ذابلات منطفئات.

تبسمت "حـم" وقالت: يا ولدي سأعلمك الطيران، فأنت

---

[1] () *تلفظ حاميم (حاء ميم)، وعلى هذا القياس تلفظ باقي الأسماء الفواتح الواردة في الكتاب*

لن تستطيع قطف النجوم من حديقة الورد الملكية قبل أن تنبت أرياش خوافيك وقوادمك.

ـ منذ أن فارقتك يا حـم لم أذق طعاماً، فهل أجد عندك ما يسد الرمق، وأتزود به في رحلتي؟

وقفت "حـم" أمام التنور وراحت تخبز لي أرغفة من حنطة سنابلها لم تحصد، وأنا الجائع أتناول منها ما يسد الرمق بعد التعب، ثم راحت تملأ لي سلتي أرغفة رقّت وصفت فهي الماء الزلال. ورحت أنظر فيها فأرى وجهي المكنون ووجه حبيبي المحجوب، وهي تتبسم لي وتقول:

ـ لن تجوع بعد اليوم ـ

ـ ما أرغفة الماء هذه يا أماه؟

ـ هذه زاد الطريق.

قالت ثم أردفت:

ـ أمامك سفَرٌ طويل، سفَرٌ عنده، وسفَرٌ إليه، وسفَرٌ فيه، وأنت بحاجة إلى الزاد، وخير زاد لك هو الحيرة المائية؛ فمن تفكّر تحيّر، ومن تحيّر ظل في قلق وحركة، والحركة حياة، ألا ترى الماء في البحر في قلق دائم وحركة دائبة، كي يبقى الوجود موجوداً؟

ظلّلَنا الصمتُ برهة، حتى إذا فار التنور بالأرغفة المائية وشارفتُ على الغرق قالت لي:

ـ اركب الفلك بعيني، واحمل معك بلبل الدار يهديك إلى جبل الجوديّ بشدوه. ولا بد كي تصل إلى هذا الجبل من أن تركب الطوفان إلى جزائر السلوك فتتزود من ملوكها بعض ما يعينك في بلوغ الأرب. اكتحل بالملح كي لا تنام، فمن نام غفل ومن غفل حُجب. وليكن قلبك مترعاً بالهمة العالية كي تدرك السعادةَ اللانهائية. ستعثر في الطريق على كنوز من الجواهر، فلا تحبسك عن الطلب، فإنك إن قنعت بها أصبحت أسيراً لها، وأصبحت لك صنماً، ومن لا طلب لـه يظل أسير دجوان الظلمة، فارتفع بهمتك إلى مصاف الملوك حتى تشتعل النار في ملكك. وستجد في كل جزيرة رفيقاً يقودك إلى مليك محبوب، فإذا وصلت إليه فلا يحجزك حبك لـه عن السعي إلى غيره حتى يكتمل محيط الدائرة؛ فالوصول إلى المعشوق يقتضي المرور بالأحبة، والمعشوق لا يكون إلا في المركز. وفي كل جزيرة تصلها على محيط الدائرة قطر يصلها بالمركز، إن شئت أن تعبر منه إلى المعشوق. ولكل سالك طريقة، وإذا أردت ألا تضل فكن كمعروف الكرخي[2] سكر من حب الحبيب فلا يفيق إلا بلقائه. وإذا حزَبك أمر فنادني، وأنا معك طوال الطريق إن رأيتني وإن لم ترني. وإذا وصلت إلى جبل الجودي ستجدني هناك انتظر قدومك الميمون.

---

[2] () *معروف بن فيروز الكرخي. من موالي علي بن موسى الرضا(ر) توفي سنة201هـ.*

أيقظتُ البلبل من نومه، وحملته معي في الفلك وانطلقت مبحراً من ميناء الطلب، حتى إذا صرت وسط اللجة لجَّ بي الشوق إلى أمي فهاج البحر، وتقاذفتني أمواجه، وأحاطت بي حيتانه. ولفتني ظلمتان، فوقفت واجفاً في مقام الخوف، وسمعت هاتفاً يقول:

- أنت الذي اخترت الطواف في بحر الفضول حيث الأمواج تتلاطم مركبك بين ردٍّ وقبول، لقد سلكت قبلك رابعة الطريق سبع سنوات زاحفة على جنبها فوق الأشواك لتلقى حبيبها، وتنعم بالقرار. فإن كنت لن تستطيع صبراً مع هذه الدوامة التي تدور في رأسك، فعد إلى الدار كي لا يحترق بيدرك، وإن أردت الاستمرار فتذكّر، فإن الذكرى تنفع المبحرين في بحر التحقيق.

تذكرت أنني تركت البلبل حبيساً في قاع السفينة، فأطلقته، وضرعت إليه أن يغني، فوقف على حافّة الفلك، ورفّ بجناحيه المضيئين فتناثرت ذرات النور في السفينة وانطلق مغنياً.

يا واصل الكاف بالنونِ
استجب
لعبرة المحــزونِ
يا رافعا همَّ ذي النونِ
أسرجِ
الرياح للسفينِ
يا كاشف الضرِّ والهـونِ
ارفع
البلاء عن رهين
يدعوك يا سيِّد الكونِ
تائه
في لجة المنونِ

تردد صوت بلبل الدار في البحار، وتعانقت الأصداء في الأمداء، فغادرت طيور السِّدرة العرش، ولامست بأجنحتها جبين الماء، وأسرَّت في أذن اليمِّ كلماتٍ، فهدأت الأمواج، وعَنَت للفلك الرياح.

أسلَمْتُ " **باسم الله مجريها ومرساها** " قيادة الدفّة، وما هي إلا برهة من زمن " إن يوما عند ربك " حتى حلقت فوق السفينة نوارس البحر فعَلمت أن اليابسة عما قريب لبوس ، وكان الجوع قد أيبسني حتى صيّرني حشفاً على نخلة خاوية، فتناولت رغيفاً من الماء مما صنعته لي "حـم"، فأكلته حتى سمعت بكاءه في عروقي، وغرّدت العافية في ضلوعي، فتابعت المسير حتى لاحت لي في جوسق التجلي جزيرة جنّاتها جِفان، لم يطأها قبلي إنس ولا جان، ورأيت بلبل الدار يخلع جناحيه ويتسلق سارية السفينة ويهتف : " **تبارك الذي بيده الملك** ".

أرسلت نظري إلى الشاطئ الملوّح لي بأشجاره، فجذبني إليه صوت غناء ينداح من الأغصان تراتيل، ومن الأثمار تسابيح، ومن الأوراق حفيفَ تهاليل. وعلى رابيةٍ مطلة على الخليج وقفت " تبارك " بثوبها السماوي الشفيف، وشالها الليلي المرصع بالنجوم وهي تشير إليّ بيد تبرق بالسلام : أن هلمَّ إليَّ أيها البحّار.

كان الليل قد أرخى سدوله، والطريق إلى "تبارك" لمّا تزل طويلة ، وأنا أردم النعاس بالمسير، حتى انتهى بي الدرب إلى حديقة معلّقَة، أبوابها مغلّقة ، والنعاس يحتفرني، وشذا "تبارك" يسكرني، فوضعت سلتي المملوءة بأرغفة الماء إلى جانبي، وأسندت رأسي إلى الحائط، وضربت على نفسي الهلوع خيمةَ الهجوع، وأبحرت في حلم ماله قرار.

أقبل الليل، وأرخى فوق جفنيّ الستائر

وصحا القلب، وضوّى زيته طاق السرائر

وهَمى عطر عجيب، لم تـزوّده المعاطر

فتشظّى التوق حلما رائع البهجة ناضر

هل هو النوم أم اليقظـة نادت فتساقر

واطرق الأبواب، حتى ترد الحضرةَ حاضر

حبك الباكي يناديك ، فأسرج كل خاطر

واملأ الكاس نجاوى خيرِ بكّاءٍ وشاكر

هي زاد الدرب، والدرب مليء بالمخاطر

جزيرة الدموع

أيقظتني " **تبارك** " من حلمي وقالت: قد سجا الليل، وراق الطلب، ونفرت من سجادة الحلك عصافير النور، وأذاعت بلابل الأرواح على غصون الراح سكّر التقوى، فهيا نصطبح كاس الصباح.

قلت: يا تبارك إني رأيت فيما يرى النائم أني مسرج قلبي إلى طاق الحبيب، ونثارات نحيب قد أضاءت لي مسراي إلى الحضرة.

قالت: فلتبادر هذا النداء مثلما بادر صنعان أميرته الرومية. إن تحقيق المنام هو نهج السالكين وخيار العاشقين.

ثم سارت بي " تبارك " من طيبة الطيوب إلى كربلاء القلوب، وطرقت باب الصحة ففتح الباب فتى كانبلاجة الفجر أثقله الداء، برز من خيمة الطاعة وهو يحمد الله في الصحة والمرض، ويقول:

" اللهم لك الحمد على ما لم أزل أتصرف فيه من سلامة بدني، ولك الحمد على ما أحدثت بي من علة في جسدي، فما أدري يا إلهي أي الحالين أحق بالشكر لك، وأي الوقتين أولى بالحمد لك؟ " [3]

ثم دعانا للدخول فدخلنا، وأحضر لنا متَّكأ فجلسنا، وتناهى إلينا صوت معركة، وصهيل فرس، وبكاء أطفال، ونحيب نسوة مطفلات. وتراءى لنا فمٌ مشرَّف ارتوى بسلافة سبحانك وما ارتوى من الماء، ونهر تحدرت مياهه دماً ودموعاً وهي تعرج إلى السماء.

قلت لانبلاجة الفجر: ما تقول في هذا المقام؟

تهاطلت كلماته زنابقَ نور على روضة عصفت بها رياح الفرقة والشرور:

" اللهم أيبس قلبي الوحشة من شرار خلقك ، وهب لي الأنسَ بك وبأوليائك وأهل طاعتك، ولا تجعل لفاجرٍ أو كافرٍ عليّ منّة، ولا لـه عندي يداً، ولا بي إليهم حاجة، بل اجعل سكون قلبي وأنسي نفسي واستغنائي بك وبخيار خلقك"

قلت: يا انبلاجة الفجر، الهواء يتنفسه المؤمن والكافر، والشمس يستضيء بها الظالم والمظلوم، والماء يشربه العادل والفاجر، والحرف يتحرّفه الحارف والمنحرف، فكيف لحرفي ألاّ ينحرف عن الحق ؟ وكيف للساني ألاّ يلتَسِن إلا بالصدق؟

قال : بالنور.

ثم رفع يديه داعياً:

" اللهم هب لي نوراً أمشي به في الناس، وأهتدي به في الظلمات،

وأستضيء به من الشك والشبهات " *

قلت: يا انبلاجة الفجر، كيف لي أن أميز ألِفاً مظلمة من ألفٍ منيرة ويحمل النص نُصّاص يتصرفون به حسب أهوائهم ، وآخرون قلوبهم دوّدت، يقولون: إننا من الأبدال. وأيديهم غائصة في الأوحال؟

---

[3] () هذه المختارات من الأدعية في معراج الألف والمعلمة بـ(*) هي من الصحيفة السجادية للإمام علي بن الحسين (ر)

قال: بالنور تميز ألف الشيطان من ألف الرحمن " **ومن لم يجعل الله لـه نوراً فماله من نور** " إعلم أن الأحرف الثمانية والعشرين لا تضيء إلا بنور نور الأنوار. ألم تر أن ما أنزل الله على أنبيائه أمران نص ونور، فقال :

" قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين "

" وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور "

" وآتيناه التوراة فيها هدى ونور "

وأكبر الهموم والبلوى أن يخلو القلب من النور. والدنيا أيها السالك إذا سَدّت بحاجاتها نوافذَ القلب لم تنفذ إليه الأنوار النازلة من "ألم"، ثم رفع يديه داعياً :

" يا واحد يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، اعصمني وطهّرني،

واذهب ببليتي، واقبض على الصدق نفسي، واقطع من الدنيا حاجتي،

واجعل فيما عندك رغبتي شوقاً إلى لقائك، وهب لي صدق التوكل عليك "*

قال هذا ثم جاء جنود غلاظ شداد، واستاقوا مع الركب النوراني انبلاجةَ الفجر، وساروا على شاطئ الفرات، وما دروا أن النور لا يقيَّد والقلب لا يقتاد، وأن الفجر إذا انبلج فلا بد للصبح أن يطلع.

قالت " تبارك " : لا تحزن فهذه نهضة الإيمان، وحبيبك انبلاجة الفجر وسيد الملاح هو فجر ثقافته؛ فالأحداث لا تقاس بالآن وإنما تقاس بالأوان، فكحِّل عينيك بأنوار الصباح، وأرجع البصر والبصيرة، فأرجعت كلِّي في كلِّي، وأرسلت سمعي أمام بصري، وغسلت بالدمع ثلاث ظلماتٍ في نفسي، فرأيت أجواقاً من الملائكة ما بين السماء والأرض تظلل الركب المحزون بأجنحتها، تلتقط دموع الفجر قبل أن تلامس خديه فتتحول كل دمعة إلى عرفان. ثم هبط جوق منها حتى لامس بأجنحته مياه النهر وهو ينشد:

أَحَدٌ .. أحد
زغرِدْ
يا نهر الأحزان
يا نهر حضارات بادت
في الأزمان
حاذاك النور الباكي
فاملأ كاساتِ الندمان
شجَنَ الورد ..
المسفوح ..
على الشطآن
هذا الدمع المتلالي

فاتحة الطوفان

ثم هبط جوقٌ ثان فدار حول الركب المفارق الفرات دورتين وسبّح:

سبّوح .. سبوح
يا أيها المفارق الفرات
مزمّلاً بغيمة الشتات
مزنّراً بالحب والصفات
لا فرق بين الموت والحياة
يا وردة الفردوس ..
واللغات
النهر
يلطم في الضفاف اليابسة
وكل من في الكون ساهٍ
غائص القدمين
في شطآن بحر الآخرة

ثم هبط جوق ثالث على جبل النحاس المطل على الشهباء وأوَّب:

رتّل سائقَ الأظعان هللويا

فيك من أهواه مقبل هللويا

حفنةُ القدسيُّ مرسل هللويا

أيَّ نور أنت تحمل هللويا

ثم هبط جوق رابع وصفق بأجنحته مياه بردى ورتَّل:

كل ما في الكون في وجهك ماثل يا أيها الإنسان

أنت من هو.. فلتكن حرّ السماء يا أيها الإنسان

أيتها الإنسان أنت تاج الملْك، والطاغوت زائل

أيتها الإنسان أنت معشوق، ومن يجعلوك باطل

ولما لاحت طيبة الطيوب للركب المزنَّر بالقلوب حطت على منائرها أجواق الملائك ، ولمقدم الحبيب أذّنت مكبِّرة :

هل أتاك حديث الغاشية
والذين طغوا في الجارية
يوم لم تُبقِ منهم باقية
نارُ شعب مَهين عاتية

فَغَم شذا العرفان أرجاء طيبة، ورنّقت فوق بيوتها أجنحة التسابيح، وهللت روضة الحبيب المصطفى بعودة الحبيب المجتبى، فاكتملت دائرة العشق، ودرجت على أقطارها طفلة السلوك.

حلت " تبارك " جدائل شعرها، وسرحته بمشط من عسل ونور، وأرسلته على كتفيها فامتد حريرٍ معانيه عبر الشعاب الدامية والزمن الديجور، فأضاء طريقاً إلى الحقيقة واليقين، ثم قدمت لي كأساً من لبن غير مجلوب لا تتذوقه إلا القلوب. وعندما شربته أمطرت غواسقي معارفُ وأسرار، ومددت كُلِّي إلى جناحي، ثم أخرجت يدي فإذا هي بيضاء كالنهار، ثم تبعها كُلِّي بعضاً بعضاً حتى تكامل الخروج للقاء الحبيب فسجدت شكراً. ولما نهضت من سجودي تبسمت " تبارك " وقالت: لقد أصبحت مؤهلاً للقاء سيد الساجدين ، وها إني مددت لك من شعري المعسَّل بالأنوار الطريق المطوية، وبسطت أمامك الصحيفة السجادية، فاسلك بالقبض وهادها ونجادها، وبيدَها وسهولها، وبحارها وأنهارها، فإن مطافها ينتهي إلي الحبيب، فكن فيها خير السالكين، وحدثني عما ترى بعين العين، وسمع السمع.

امتطيت براق "**رسالة الحقوق**"[4]، فعرج بي على الطريق المعسَّلة بالأنوار حتى انتهى إلى مسجد في طيبة الطيوب تعبق فيه نوافج مسك الكلم، فترجلت ودخلت، ورأيت الحبيب يغترف من بحر جده كؤوساً من قواعد السلوك يسقي بها العامة والخاصة، ثم ناولني كأساً لا تمسها يد، ولا تراها عين، نقشت عليها هذه الحروف:

" الحمد لله الذي ركّب فينا آلات البسط ، وجعل لنا أدوات القبض ، ومتعنا بأرواح الحياة، وأثبت فينا جوارح الأعمال "*

---

4 () رسالة للإمام علي بن الحسين(ر).

شربت منها، فرويت ظمئي، ثم ودعني، وأودعني على رَفْرفٍ بقوة البيان وأنوار الفرقان، فتابعت طريقي حتى انتهت بي الرحلة إلى دار تشف جدرانها عما فيها: أحجارها دموع، وسقفها خُشوع، وبابها رُكوع.

دعتني جنائنية الدار " طس " إلى الدخول فدخلت، ووقفت في رواق " **من أتى الطعام على حبه** " فرأيت أيتاماً وأضِرّاء، وزَمْنى ومساكين، وأسرى لا حيلة لهم، يطعمهم سيد البررة بيد بيضاء تسر الناظر وهو يحادثهم ويمازحهم ثم يحمِّلهم طعاما إلى عيالهم ويقول:

" اللهم هب لي يقيناً صادقاً تكفينا به مؤونة الطلب، وألهمنا ثقة خالصة تعفينا به من شدة النصب "*

ثم عبرت بي إلى رواق " **يا عبادي** " فرأيت حبيبي يشتري الأرقاء فيغْنيهم ثم يطلقهم أحراراً ويقول:

" إن الشريف من شرفته عبادتك، والعزيز من أعزته عبادتك"

" يا غني الأغنياء ، هانحن عبادك بين يديك وأنا أفقر الفقراء إليك "*

ثم عبرت بي إلي رواق " **ما آمن بي من بات شبعان**.. " فرأيته جائعاً يحوم حول طعام يشتهيه فلا يأكل، ونفسه لا تقر إلا بأمر، حتى إذا تصدق بمثله هدأ واستقر، وأقبل على الطعام بنفس راضية.

ثم عبرت إلى رواق " **واخفض لهما** " فرأيته يضع طبقاً عليه خبز ورُطب ودموع ، وإناءً فيه لبن وتقوى وخشوع، أمام امرأة عجوز ينظر إليها بعين الذل والرحمة ولا يواكلها.

قلت : يا ابن بنت رسول الله أنت أبر الناس وأوصلهم للرحم فكيف لا تواكل أمك ؟

فقال : إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها.

وظللت أعبر أروقة السلوك رواقاً بعد رواق، أصيد بعض طيور الطريق، حتى انتهيت إلى الباب وأذن مؤذن الغرام بالوداع.

قلت: يا انبلاجة الفجر وريحانة الإسلام ألا تقرئني الصحيفة فأكن من الشاكرين؟

تبسمت دمعة سالت على خد السلام وقالت : طريق الدموع صحيفتك، وصحيفة الأكوان هو الإنسان. ولا تدخل باب الإنسان إلا من بوابة الضراعة والخشوع والدموع.

الحروف الثمانية والعشرون يا ولدي قطرات دموع كل حرف دمعةٌ تهطل من عين الله، ومن هذه الدموع تولد لُغَى

العشق والأقلام. والعشق وحده يا ولدي يقودك إلى حبيبك النور المحيط، "وما أنا إلا مَعْلَم في الطريق، فاسمعني صوت الدموع والضراعة يصلني الصوت أينما كنت.

قال هذا ثم غلبه البكاء واغرورقت عيناه بالدموع، ودارت الدموع في أفلاك عينيه حتى سمعت في دورانها رفيف أجنحة الملائك، وهينمات الكواكب، وموسيقى الأفلاك، وتسابيح الوجود.

ركبت الطريق عائداً إلى " تبارك " ، خاشع القلب على رفرف الحب، فتجلى النور أمامي، ورأيت كل ما في الكون يدور ويدور، وتسابيح تمور، والسماوات السبع والأرضين في ركوع وسجود وحبور، ورأيت و رأيت ما **لا تحيط به عين ولا يصفه لسان .. كل ما في الكون نور وصلاة .. نور وصلاة.**

سجد النور وصلّى في تهاديل الحمام

ودم البوح تجلى في فضاءات الإمام

يا إمام العارفين
عِلمك المكنون ضوئي في السلوك
أنت يا مَن
مِن تقىً تغضي حياء
وإذا الهيبة صالت
في محياك
فقد أغضى الملوك
من نجاواك أصوغ اليوم زين العابدين
وإمام الساجدين
هذه النجوى
ونجواي ..
ذنوب وسجود وركوع

وابتهال واشتياق ودموع
مبتداها : يا حبيبي

يا حبيبي
طال ليل العوسج البري
واجتاحت
حقول الزنبق البري
ذؤبان الجفاف
وحروفي البيض
من ثلج
على نار رعاف
ولُحوني
عافها المعزف
في صمت الزُّعاف
لغة العشق استبيحت
وغدا العاشق
مجنوناً
وسادت لغة اللغو
وتحذاء الهتاف
فمتى يندلح لحن النور
في الناي
يصلّي
في تهاديل الحمام؟
ومتى الحب يجلّي
في فضاءات الكلام؟

يا حبيب البؤساء
أنا من سجادة الدمع أتيتُ
ومضيتُ
أنا ناي الضعفاء
ليس سرّي ببعيد عن لحوني
وشجوني
ونحيبِ المدلجين في اضطرار
لكنِ الطاغوتِ
لا يملك سمعاً

يدرك الأسرار

قبضَت " تبارك " شعرها المتجدول على أكتاف طيبة وضفرته جدائل سجادية الألحان، وقالت متبسمة:

ـ أتقدر على مثل هذا الحب؟ وفراشة العطار ما عرفت حتى تعطرت واحترقت في دائرة النور والنار؟

قلت: يا سيدة الحروف

تبارك

اسألي نفسك مرة واحدة

من يقدر على مثل هذا الحب

غير عاشق

يوقظ عصافير النور

من سجادة السجاد

ويطيِّرها على أغصان الفؤاد؟

معراج اللام

2

عندما رجعت إلى الفُلْك رأيت الأضواء تتلألأ فيها و" حـم " في انتظاري، والبلبل على كتفها الأيمن يرسل في الأجواء نثار الشهد، فتومض في الأفق الغربي عيون الغاربين وقد حررها السّجان من أسر الزمان والمكان.

كانت الأسماك المضيئة، والأسماك ذوات الألوان البديعة، تغوص في اللجة ثم تندفع إلى الأعلى راسمة قوس قزح، وأسماك أخرى تتقافز إلى الفلك فترقص على أذنابها رقصة اللهبَين، وأطيار النورس تحلق ثم ترتّق فوق الفلك سكرى بترنيمة رحمانية من شهد المشهد.

ـ " حم " أيتها الأم والأخت والحبيبة ما الذي جاء بك؟

ـ لزَّني العشق فصاهَوْت طائر الذكرى واقتبلت القِبلة ، وما إن أمطرتني القُبلة الأولى حتى وصلت إليك ، فاركب معي طائرها قبل أن يطير طائرنا.

ـ اليوم
يا حبيبي
وبعيدا عن أعين الرقباء
زرعتُ راحتكَ في راحتي
وبحنو البستاني على زرعه
ضممتها إلى صدري
خوفا من صقيع العيون
وعندما بسطتُ راحتي
وجدت فيها واحدة من ثمار الجنة
ـ كانت يدكِ دافئة ناعمة
يتواممض فيها نور غريب
وعندما ضغطتِ بأصابعكِ الفردوسية على راحتي

سرت في جسدي صلصلة الجرس
ثـم .. غبت عن الوعي

ـ وعزفتُ بأناملي على مدارج النبض في روضة الصفو
لحناً باكياً
فانفتح أمامي باب أخضر
امتد أمامه بستان يانع الثمار والزهور
فأغراني بالدخول
ولم أتمالك نفسي
من أن أحيطكَ بذراعي عشقي
في نشوة خرساء

ـ هذا الصباح
قطفت وردة من بستان خدكِ
ثم .. سافرت في العطر
وعندما ارتد إليَّ طرف شعوري
حرت في نظرتك
أ كنتِ مسرورة أم غاضبة
لأن زبور وجهكِ المعسّل بالتراتيل
قد نقصت منه آية
وتركتكِ بين الذهول والشعور
بين الغضب والسرور
لأقطف لكِ من بستان الآن
وردة بلون شفتيكِ الناريّتين
أهديها إليك ..
أعوضكِ عما خسرته هذا الصباح

ـ هذا ما حدث اليوم
أما أمس
.. يا لروعة الخجل المحلّى
بسكّر الآل و سَكْرة الأحوال

ـ أمس..! يالروعة الأمس !
عندما جذبتُ خصركِ إليّ

أحسست بالرعشة التي سرت في جسدكِ المشتعل بالأنوار
وهي تعبر إلى جسدي الألْيل المنطفئ
فهل تسمح لي يا حبيبي بالعروج إلى سدرة جمالك
وأنا العاشق الغارق في مغارة القاف
شَهِد مَشْرِق الشين
منَ فَلك العين؟
هل ..
أن أبحر في نهر التجريد
ثم أرسي أشرعة التجويد
على ضفتيك
فأشدهما إليّ
حتى يميل الكون الدائر نحوي
وأنت ..
لا تميل عن محور دورانك؟
هل .. تأ ..

لشفتي الراعشتين بالتّوق المعتّق
أن ترفعا أشرعة الحجب
وتبحرا في لجين لجة الساق
وأنا أجدّف بالأيس والليس
في تيار الحيرة
حتى يرسي الفلك على جوديِّ الجلال
أضع أحمال الهوى
وقبلة
تصعق لها كل خلية في جسدينا؟

هل .. تسـ .. يا
لعينيَّ المعتمتين بليل صدودك
أن تستنيرا بقمريك المضيئين في صدرك
وللساني الملمّى بالثناء على خصالك
أن يوقظ ميميهما من الغفوة
فيلقي عليهما سلام العاشقين

ولفمي الصادي
ونهر جمالك جارٍ
أن يرتشف جرعة من ماء الحياة
ويكتشف ما طعم أثمار طوبى
فأنا
يسكنني جوع جميل إلى جمالك
وعطش شفيف إلى شرابك
منذ أن خلق الله الكاف والنون

هل .. تهـ .. يا .. هوو
وقد أيقظ القيظ فينا الهوى
أن تتلبلب أرضي بطور سمائك
فيتفاغم الثرى بالثريا
حتى تغوص الأثداء في الأثداء
وتلتف الساق بالساق
ونغيب عن الوجود في عناق
نحتسي راح الوصل
نرتشف
قهوة القبض والقدَر
حتى يحملنا براق الأشواق
إلى سرمد المطر

صمتت "حـم" برهة لا يعلم غير الياهوو مبتداها ومنتهاها، ثم تسايفت أهدابها ورمتني بنظرة عتب وقالت:

التواجد استيعاب، والوجد استغراق، والوجود استهلاك. ليس من شهد البحر كمن ركبه، وليس من ركبه كمن غرق فيه. ولا يعرف البحر إلا من غرق في اللُّجة.

ثم قالت:

ـ أيها السالك في الأحوال، عليك أن تسافر بنفسك حتى تظفر بنفسك، وتصبح الحقيقة لك سلطاناً. ألا ترى النسوة اللائي حضرهن يوسف قد تلوَّنَّ بجماله فقطّعن أيديهن، وصاحبته تمكّنت فتحصَّنت.

ثم قالت:

إذا أحببت عرفت، وإذا عرفت ازددت حباً، وأيهما قدِّمت فإنها توصلك إلى الأخرى، فالمحبة استهلاك للنفس في لذّة، والمعرفة شهود لها في حيرة، وفناء في هيبة. وإذا تكلمت في المحبة

فتلطف بمن قلبه غير مكين، ألم تر سمنون[1] وهو جالس يتكلم في المحبة إذ جاء طير صغير فلا زال يدنو منه حتى جلس على يده ثم راح يضرب بمنقاره الأرض حتى سال منه الدم ثم مات، أما قناديل المسجد فتكسرت كلها.

ثم قالت:

ـ ليست الطريق إلى الحق أن تفارق الخلق، فمحبة الخلق من محبة الحق، فلا يحملك سكَر الفناء إلى معازف الغناء، واحرص على ألاّ تَزاورَ شمسُك عن كهف الشقاء.

ثم رفعت المجداف بيد القدرة وضربت به وجه الماء فانسابت الفلك سنين حتى أرست في جزيرة الكلام.

جزيرة الكلام

استقبلتني " **ص** " على الشاطئ بقامتها الممشوقة ووجهها الأسمر الذي قمّرته شمس الظهيرة. كانت ترتدي ثوباً رملياً شفيفاً تبرز منه مفاتنها، وتسحب ذيله الطويل وراءها كملكة أسطورية، وشعرها الدُّجُنّي المتماوج تمر عليه أنملات الريح الجنوبية الوالهة فتعزف للرائي موسيقى بصرية مرتجلة اللحون كأنها تقاسيم عازف مبدع مجنون.

ـ أخبرتني "حم" بمجيئك، وما عليك إلا أن تتبعني.

تبعت خطاها صامتاً وقد أحاط بي عطرها المنبعث من جسدها المغزول كقصيدة شعرية نسج إيقاعاتها صوفي هراق دمه العشق، وخطر لي أن أسألها ما نوع هذا العطر علّني أحمل منه هدية إلى "حـم".

ـ إنه عطر الصفات أيها الشاب المتشبِّه[2] ـ قالت من غير أن أنبس بكلمة ـ ولكل امرئ عطره المنبعث بقدر جمالاته، وعندما تصل ستدرك المنبع الذي تصدر عنه عطور الأمثال[3].

خجلت من جهلي، وأدركت أن الطريق مازالت طويلة، وحدثت نفسي وأنا أتفكر في ذلك الجسد الكوثري المتجدول أسئلة بلا حروف ولا سائل: لو أن فتاة كهذه قد برزت لطواغيت الكلام والظلام لتحولوا إلى دراويش يحملون فوانيسهم ويبحثون عن الحقيقة.

التفتت إليّ وقد سرى برقي في كوثرها وقالت:

ـ طريقك حافلة بالماء والنار وأنت في أوله، فلتكن عينك مبصرة ؛ فما صُنع الجمال إلا من أجلها، لكن الجمال لا يظهر لمن عينه ملئت بالتراب.

فالألحان لا تعزف من أجل أذن صماء.

والمسك لا تشرق أنفاسه الطيبة على الأخشم.

---

1 () *سمنون بن حمزة ، كان يتكلم في المحبة، مات قبل الجنيد.*

2 () *المتشبه هو السالك في أول درجات السلوك.*

3 () *المثل هو الإنسان. وهو الصورة التي يظهر عليها.*

والمرأة لا تتزين من أجل رجل أعمى.

كان المصطفى يقول: " **كلميني يا حميراء ، كلميني**"، وكي تكون عينك مبصرة لا بد أن تحرق نعل فرسك على اسم محبوبك، وتخرج هذه الشوكة من قدمك لتصل إلى البستان. فإذا كانت عينك مبصرة فإنك ترى الجميل بالكلية من خلال الجميل بالجزئية، ألم يقل النبي: إن الله جميل يحب الجميل.

خجل التراب، فتبسمت "ص" وبحركة رشيقة بسطت شعرها الفاحم على نهديها المتوقدين وقالت:

ـ جمال الحقيقة حقيقة الجمال. وإن جمال المظهر نبض النبع وفيضه، ومن مغاور النفس يتدفق هذا النبع.

لو أن طواغيت الأطلال علموا أن الدنيا ظلال لنبضت قلوبهم بالعشق، لكن العشق لا يسكن الحجر الأصم.

العشق نور ونار وما سواه ظلمة ودخان، فاحرص على مصباحك ألاّ ينطفئ، وعلى طريقك ألاّ ينقطع.

ثم تابَعَتِ المسير عقداً من الجمان أخاف في كل خطوة أن ينفرط.

انسكب الصمت من الدنان الغارقة في بحران التأمل، فلم نكن نسمع غيرَ وقع خطواتنا على الأرض المغطاة بأوراق الأشجار المتساقطة من الأغصان المائسة، وحفيفَ الأفكار المتزاحمة في كؤوس الخواطر. تملكني عشق غريب، وكانت كل ورقة خضراء أو صفراء تطرح رأسها على كتف أختها ثملة بالعشق في بُحران هذا المشهد. ولما طال بنا المسير، وبدأت روابي الجزيرة الناعسة تتوشح بغلائل المساء ساءلت نفسي: إلى أين تمضي بي هذه الحورية الهاطلة من يمِّ السماء؟

ـ نحن في طريقنا إلى شجرة الكلام أيها الشاب، وتحتها نصبت خيمة أمير الكلام، فإن وجدتها مغلقة فلا تحاول دخولها لأن صوته سيصلك مع انتباهة طائر النفس؛ فكن أحرص على الاستماع منك على الكلام، واستمع بقلبك فالقلب مغرفة الكلام.

عجبت من يمامتي السمراء، وفراستها الزرقاء، وهي تدرك الكلام قبل أن ينطلق من نهر الخواطر إلى شاطئ اللسان، تطّلع على ما في الضمائر، وترى ما في البصائر.

نظرت إليّ "ص" وتبسمت وقالت: من نَظر بنور الفراسة نَظر بنور الحق، والفراسة لوامع أنوار تلمع في القلوب، وتحمل إليك أسرار الغيوب، حتى تشهد الأشياءَ من حيث أشهدك الحقُ، فاحرص وأنت على سفر وخطر على أن تهتدي بهذا النور كي ترتقي بأنوار التجلي إلى المشاهدة، فإن أهلكَ ما للمسافر في هذه الطريق أن يكون من أهل الغفلة.

تركتني" ص " أمام شجرة وارفة في واد غير ذي زرع ومضت. ثمة خيمةٌ موصدة عليها قطرات من الدم، وعلى باب الخيمة سيف وكتاب وحمامة بيضاء.

حرت في تفسير هذا المقام فجلست على الأرض وأسندت ظهري إلى جذع الشجرة، وفجأة هبت ريح من الجانب الشرقي فتمايلت أغصانها وراحت تتساقط منها أوراق الكلام حكايات ورؤى، وأحاويق وتراتيل، وثمرات ومواويل، وأنا في عجب من شجرة طلعها حروف وقطوفها لغى. وأحسست بأنفاس أجدادي الأولين تلفحني، وعيون تحيط بي وتومضني فعلمت أني في حضرة الأرواح والزمن المباح.

أصوات متداخلة تهطل من الأغصان الدانية القطوف، وصوت أبي يخترق زحامها ويسكب في كاس دهشتي وحيرتي ياقوت الكلام.

"كان لي فيما مضى أخ في الله"[4]

هكذا قال أمير الكلام
وبين كان وما هو كائن
تمتد الطريق إلى القلوب
التائقة إلى نور الحقيقة
والمحبوب الأول
يجدل الأنوار القلبية جداول
ويجريها على كتف المدينة
ويقول : هذا أخي في الله

رؤية

في مقام الناس توضأ السالك بدم الكاس
وعلى شاطئ نهر العشق
ألقى حجراً في الماء
ولما رأى الدوائر تتسع اتسعت الروية وصاح:
يا من كان الإيمان لكم نسباً
من يوقف نزف الدم؟
من يصرع تنين الحمأ الغربي؟
ينزل خيبر
من ليل صياصيها؟
من ..؟
يا من قال لكم رب الناس:
" إنما المؤمنون أخوة "

أجاويق الدم

دمعت عينا أمير الكلام على ما فات وما هو آت، وسالت قطرات من دمه الزكيّ المسفوك بخنجر الغدر فغمرت

---

4 () *هذه العبارات الواردة في معراج اللام والمعلمة بـ (*) هي نص مأخوذ عن نهج البلاغة للإمام علي(ر).*

جراحات هذه الأمة الشعثاء وقال:

" كان لي فيما مضى أخ في الله ، وكان يَعظِمه في عيني صِغر الدنيا في عينيه "*

أنتـم
يا من أمسكتم بتلابيب الدنيا
والدنيا قبض هواء

أحكي لكم قصة أمّيٍّ جمعوا في كفيه التِّبرَين فقال:

" والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه "

يا عصر جديد الأوثان
أنصت..
إرنانة سهم الإيمان!
يا بنيَّ هلك خزّان الأموال وهم أحياء
فتحرر
من سلطان المعبود الأصفر
من سلطان المصران الأعور
من كل طواغيت الحمأ المسنون
والنفس الأمّارة
يا بنيّ

" كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما يجد ولا يكثر إذا وجد "*

لمن الموائد في المقاصف أشرعت
والجائعون على الطوى قد باتوا؟
لمن الخورنق والسرير وما بنى
فُجُر الغنى، أموالهم آهــات؟

<u>ورقة من روزنامة قديمة</u>

يحكى أن نبيلاً رومانياً من أولاد الذئبة، كغيره من نبلاء روما كان خاضعاً لسلطان بطنه، يشتهي ما يجد ويكثر إذا وجد، مستعراً بلذّة الأكل ولذّة المنع، مشتبقاً بلعنة الجمع ولعنة الجماع. وكان إذا أعول أطفال المدينة من الجوع أعولت معدته من الطعام، حتى إذا سمع عواءها أدخل ريشة في فمه فتقيأ ثم عاد إلى الطعام من جديد.

وذات يوم غص بريشته فمات
وسقطت روما.

قال لي أبي ونحن حول مِنقل النار نتدفأ في ليلة شاتية :
يا بنيَّ
إني أرى نساء كاسيات عاريات
مائلات مميلات
وأرى الأَمَة تلد ربَّتها
وأرى قوماً يتطاولون في البنيان
وهذه المدينة
تغص بريشتها

يا بنيّ
تابع أمير الكلام
" كان لي أخ في الله ، وكان أكثر دهره صامتاً، فإن قال بدَّ القائلين، ونقع غليل السائلين" *
طوبى لمن كان نور الله في قلبه؛
لأنه يتعلم الكلام من الصمت
ويتعلم الصمت من التفكر
ويتعلم التفكر من أنوار تتنزل على قلبه
تجذبه إلى النور المحيط
فإن تحدث ..
كان في الحكمة متعاليا
وفي الحقيقة صاعدا
ووجهه بالنور مشرقا
طوبى ..
لمن كان باباً لمدينة العلم
وكان العلم باباً لنور اليقين
وكان اليقين باباً للأنوار الرحمانية

<u>عويل المعول</u>
كان أبي بنّاءً حكيماً
يرصف حجارة الطريق لئلا تتعثر فيه امرأة مطفلة أو صغير
ويصلح ما تهدم من البيوت
قال لي ذات صباح موحلٍ وهو يخصف نعله :
يا بني
احذر فتوى عالم خلا قلبه من نور الله

واحذر من شيطان يسرق لغة الدراويش كي يظن
الناس أنه من أهل الحكمة والحق؟
واستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك
والتمس لك معطار الأنوار
ممن كان أكثر دهره صامتاً
فإن قال بدّ القائلين ونقع غليل السائلين
هكذا قال أبي ثم مات
وفي عتمة الليل
كنت أسمع نحيباً متصلا يقطع نياط القلب
كانت أدواته التي صحبته في رحلة العمر :
المعول والمسحاة والشاقول
تبكي عليه في عتمة الليل

" وكان ضعيفاً مستضعفاً فإن جاء الجد فهو ليث غاب، وصلّ واد.
لا يدلي بحجة حتى يأتي قاضيا " *

وذات ليلة
مدّ يده إلى صدري وأشعل فيه مصباحاً أضاء الأضالع
وقال:
أعلى درجات القوة
أن توصلك القوة باب الرحمة
يقوى في ضعفك مقهور
يضعف في قوتك شَرور

نحن قوم تذيبنا على أننا نذيب الحديدا
الأعين النجل

هكذا قال هصير الخصيتين
الملك المنعم في فضته
واستلت بغداد الأعين النجل
تبارز ذاك التتري القادم من بيداء العصر الأسود
.. فانهارت
ماذا لو قال :
" أشداء على الكفار رحماء بينهم "
هل كان لدجلة أن يقذى بدم و فرات؟
يا بني
إذا لم يشتعل قلبك برب الفلق
فلن تستطيع أن تدرأ عن نفسك أذى شر ما خلق
وإذا لم تعشق ما تؤمن

فلن تستطيع أن تتحمل الأذى في سبيله
أما سمعت أمير الكلام يقول:
" كان لي فيما مضى أخ في الله ، وكان لا يشكو وجعاً إلا عند برئه ،
وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل " *
والكلام .. آه من الكلام
سر أوجاعنا
وكان أمير الكلام قليل الكلام ..
فتعلّم هذا البيان

صمت وكــلام

سقط أبي من فوق جدار كان يبنيه فتهرّأ لحمه وتصدعت عظامه، ولكنه لم يطلق صرخة ألم واحدة.
مسحت بأناملي الصغيرة دمعتين شرقت بهما عيناي وقلت : اصرخ يا أبي.
تبسم ضاحكا من قولي وقال :
يا بني
من يجد في جسمه وجعاً يشغل عن الشكوى
بمصارعة الداء
ومقاربة الشفاء
وهذا أول الدواء
يا بني
عيُّ الفعال أدعى للوبال من عيِّ الكلام
فتعلّم من الصمت كيف يكون الكـلام
وكيف تنسج من الوقت
رداء للحياة
يا بني
شُغِلنا بقعقعة الكلام
وحروب الأرحام
حتى تداعت علينا اللئام
كما تداعى الأكلة على قصعتها
صـرنا أعداداً
وكنّا أندادا
صرنا ثغاء
وكنّا رعاء
وصار أهل الأفعال

يخيطون لأهل الأقوال
رداء للسلام تبين منه عورات أشبـاه الرجال
وربات الحجال
أما سمعت أمير الكلام يقول:
" كان لي فيما مضى أخ في الله ، وكان إذا غلب عليه الكلام لم يغلب
عليه السكوت ، وكان على ما يسمع أحرص منه على ما يتكلم " *
يا بني
الساكت عن الحق شيطان أخرس
قلت : والصمت؟ ألا يحمد الصمت في مواطن الخطر؟
قال:
تعلم من الصمت الكلام فإن بدا
لك الظلم فالزم جانب الحق ظاهرا
فما النطق أن تغدو خطيباً مفوهاً
وما بـ "مفاعيلن" ستصبح شاعرا
قلت: وكيف أميز بين اثنين لا يغلب عليهم السكوت
بائع خصام في مجلس سلام
وبائع أوهام في مورد حِمام؟
قال: كن على ما تسمع أحرص منك على أن تتكلم
واستمع بقلبك لا بأذنك
فإن بعض الكلام قرع
وبعضه صدع
وإن بعض الكلام نور يتنزَّل على الأفئدة
وإن بعضه ظلمات تغشى الأوردة

<u>حكايــة</u>

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، ملك عظيم، أمر أن يبنى لـه قصر على قمة جبل شاهق يطل على عاصمة ملكه.

عمل المهندسون والبناؤون، وهلك في بنائه الكثيرون.

وكان هنالك درويش يمر كل يوم فيلقي نظرة على ما يجري ثم يمضي.

ولما انتهى البناء وقف الملك أعلى الجبل وحوله حاشيته وحراسه.

ومر الدرويش أسفل الجبل وحوله مريدوه وهو يتكئ على

عصاه ويحمل إبريقه.
صاح الملك: قف أيها الدرويش، أي عيب ترى فيَّ أو في هذا القصر؟ أنت تمر كل يوم، تلقي نظرة مستخف ثم تمضي!
قال الدرويش: يا مريضا بالملك، عيبك أن عزرائيل سيعودك.

فما أنت فاعل مع هذا العيب الكبير؟
وعيب قصرك أن سافيات الريح والزمن
ستحوله إلى طلل حائل ، ورسم دارس
غدا عندما يكبو جواد عمرك وكبريائك
ويضمك قصر قلّصه العمر ..
مترين في متر
وينادي صاحب الخيمة الزرقاء:
يا من في بناء مجدك الخاسر
وقصرك الداثر
أنفقت ما اؤتمنت عليه من مال
وأهلكت الرجال
" لمن الملك اليوم"
فماذا أنت قائل
إذ يجيب الحق نفسه.
" لله الواحد القهّار"
أيها الملك المسوَّر بتيهه وجهله وحرسه
هذه الدنيا بيت عنكبوت
وأنت فيها ذبابة علقت بالشرك
"وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت"
فخالف الهوى
قبل أن يوقظك النوى
وكن كما قال أمير الكلام:
" كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان إذا بدهَهُ أمران نظر أيهما أقرب
إلى الهوى فخالفه " *

<u>بقية موّال قديـم</u>
لي صديق كان قاضياً ومازال
أثرى أقرانه
وفقيراً مازال
مُلِّكوا المزارع والقصور

ومرملاً مازال
يحكم في المئين والملايين
ومسكيناً مازال
يَعِدونه بالأبيضين
الفضة والبضة
ويوعدونه بالأسودين
الشّرة والشدة
ليحكم بالمحال
وكان قبل الحكم
يغلق على نفسه باب الهوى، وطول الأمل
ويخلع في العتبة الوعد والوعيد
ثم يعبر إلى الغرفة الزرقاء
فيمد أمامه سجادة القنوت
مسلماً روحه وجسمه للركعوت
مبحراً في الملكوت
حتى يرى الدنيا بيت عنكبوت
ثم يمسك بالقلم .. وشآبيب القسم
ويتلو .. ويتلو .. حتى تدمع منه العيون
ويسمع من علّيّين
صرير " **ن ، والقلم وما يسطرون** "
فيكتب ما يوحي إليه اليقين.
قال العارف بالله:
إني رأيت صديقك هذا في روضة وارفة
على بساط زاهر من بسمات المظلومين
وأنت مازلت تقول : كان صديقي فقيراً ومازال!

<u>هزيم الهزام من تقاسيم البيان</u>
قال لي أبي الذي أوتي أسرار الحكمة:
لقد أعجبني حديثك عن صديقك القاضي الذي يحكم بين الناس
فهلاّ حدثت بهذا الحديث
من أوتي حُكْم الناس.
قلت :
يا أبي إن طائر صوتي لا يصل إليه
فهو على قمة جبل شاهق، وحوله الحراس

وبيني وبينه سبعة أودية، وسبعة جبال، وسبعة بحار
قال :
وهل هو إلا واحد من الناس
يأكل الطعام ويشرب الماء
.. ثم يمضي إلى الخلاء
يمشي في الأرض
ثم ترعاه الأرض

يا بني
ما خلا صاحب الخيمة هباء وفناء
وما صاحبك هذا إلا غبرة من نعاس
يذروها رب الناس
وهاؤم الناس أمامك
فحدثهم بهذا الحديث.

خرجت من المقام وأنا مثقل بأحمال كلام، ارتصت ذراته في نفسي حتى تناهت صغراً ، وتعاظم جذبه حتى تناهت شدة ، وعذت برب الناس فأطل عليَّ من فوق رياح خمإسينية ساقت أمامها غبارا سد مطالع الآفاق، ورماني بالطرف أن هاؤم الناس فحدثهم حديث جدك الذي كان لـه أخ في الله ، وأبيك الذي بكاه المعول والمسحاة والشاقول. ولما أرجعت النظر طويلا في السديم الغباري فلم أجد غبرة واحدة مازها تاج أو صولجان، ولا عسكر أو مرزبان، ألقيت أحمالي التي تساقط قطافها من شجرة الكلام، حتى إذا مازجت الأحرف الغبرة وأغْبَرت السماء مطراً من نار ، اعتمرَت القوة لساني فناديت :

وقد حدثتكم أيها الناس
عزفت لكم هذه التقاسيم
من هزيم الهزام
بأنامل الرؤية والرؤيا
على أوتار معراجي
يا أيها الناس
"إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا عبد مؤمن، امتحن الله قلبه
بالإيمان، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة ". *

□□

معراج الحــاء

3

ودعتني" **ص** " أمام الأسوار وقد علت وجهَها الممطرَ خمراً وسلاماً سحابةُ حزن، قالت:

ـ أختك " حم " في انتظارك.

خطر لي أن اسألها عن سبب حزنها فاستبقت سؤالي بالجواب، وما علمت قبلها فتاة تقرأ ما لا يكتب وتسمع ما لا يلفظ :

ـ الحزن مرآة الذاكرة، والذاكرة مرآة الزمن، ومنذ أن خلق الله ذرة الزمن الأولى حين أهبط آدمَ وحواءَ الأرض كان الحزن. وللأفلاك والأجرام أحزانها التي لا يدركها الإنسان. وللنور أحزانه المظلمة، وللظلام أحزانه المنيرة، ولكن ذلك عسير على فهمك، فاخلص إلى أختك قبل أن تنقطع بك الطريق.

ناسك الربذة

عندما وصلت إلى الشاطئ كان أمر عجب، فقد غاض البحر، وانحسرت مياهه عن صحراء مترامية، يشقها نهر من المهل، وغاصت السفينة في اللزوجة. وران على الأكثبة الرملية المترامية جو سديمي ساكن مثقل بأبخرة من كبريت وزئبق وغبار ودخان.

اقتحم قلقي نحيب البلبل وإرنانة " حم " فهرعت إلى الفلك وأسرجتها وبحثت عن البوصلة في قاع السفينة فلم أجدها فوقفت متحيرا.

أشارت " حم " بيد واهنة إلى راء الرحمة والرهبة فأدركت إشارتها وأسلمت عنان السفينة إلى "مَرَجَ البحرين" فقادها مع التيار وانسابت ببطء التفكر نحو مغرب التذكر.

ـ إذا وصلت صحراء الربذة فقل للربان أن يرسي في ميناء الغفاري.

بصعوبة شديدة نَطَقَت هذه الكلمات ثم غامت في إغماءة

غائرة.
حملْت شقيقةَ الروح وبلبلَ الدوح إلي مقدمة السفينة باحثاً عن نسمة شاردة، ولما يئست من هبوب صبا نسلت من جناح البلبل ريشةً صهباء عزفت بها على قيثارة السماء ترياق صبا وانطلقت منشداً من مغرب الصبر حتى مطلع الصباح.

أيها القمري المهاجرُ
في غابر الأزمان والأسمال
من حاء الأحوال
إلى لام الظلال
تنثر فوق البيوت الهاجعة
أغانيك الدافئة الحزينة
عد إلى شجر الغَرْب
قبل أن تغرب شمس العمر
ويأتي حطاب الغابة النائمة
يجتث بفأسه العاتية
شجرة العمر التي تفيئ إليها

أيتها الطالعة
من دنِّ اشتياقي
حورية بحر
راضية مرضية
إني لأشعر بالوحشة والبرد والصقيع
في بلاد لا تنتمي إلى قلبي
وإني لَيحملني الشوق الأول
إلى شقائق الصدر النعمانية
المضرجة بشفق العشق

أيها الحبيبان المهاجران
إلى سرادقات الضنى والضباب
هذا أنا ..
والقلب الذي خفق منه الجناح
بحبكما ذات طهر
باق على العهد
منذ أن سكب الفجر
قطرة السنا الأولى في شفتي

وإلى أن يعم نور المحبة
جميع القلوب الظامئة

تناهى غنائي المحزون إلى طائر النفس فنفض جناح اليقظة؛ وصحَت " حم " من رقدتها وعاد بلبل الدار من الغيبة، فأمطرني فرح أزرق. وعبرت من الفلك إلى الشاطئ فاستقبلتني عجوز خاوية على خريفها، تجول في عينيها دمعتان من خراب ، وعلى مطارح النظر تلوح خرائب الربذة الذابلة، قالت:

ـ ألست شقيق " حم " وحبيبها وابنها ؟

ـ بلى أنا شقيق " حم " وحبيبها وابنها، فماذا تريدين، وكيف عرفت؟

قالت العجوز الخاوية على خريفها:

ـ أنا حاء " حم " وحفيدتها ، وزوجة أخيك التوأم، الغفاري الذي مات ليلة أمس.

عجبت من حفيدة تكبر جدتها، وأخ توأم لم تحدثني " حم " عنه، وأدركت سر غضب السماء، وحزن الأرض، وانحسار البحر، وظهور الدخان، وانداح المهل الناري. وكُشِفَ لي عن اعتلال " حم " في السفينة، وصمت البلبل الذي ما عَرف غير الغناء.

ـ يا سيدة الخريف الخاوي على شتائه هل من مساعدة أقدمها لك؟

ـ تساعدني في دفن أخيك التوأم قبل أن تصل عساكر الخان فتصلب جثته على باب المدينة.

ـ سأفعل وإن كنت لا أعرف توأمي الذي تدعين.

ـ كيف تعرفه وقد ولد في جوف جمرة متقدة في كهف رطب مظلم بمساحة كل الأوطان المقهورة ، وولدت أنت في كرم عنب يمتلكه خمّار القرية المعمورة في ذروة الجبل المتعالي؟

ـ أود أن أعرف المزيد عنه قبل أن ألقاه.

ـ إنك منه وهو منك، ولكنه وحده الذي سار وحده، ومات وحده، ويبعث أمة وحده.

قالت هذا ثم التفتت إليَّ وأردفت.

ـ وأين البلبل يرتل فوق القبر سورة الرعد؟

ـ سورة الرعد!

ـ حتى تلد الأرض بمثله، زمن المخاض آت كالكتاب، لا ريب فيه.

ناديت البلبل فحط على كتفي الأيمن، وتبعت العجوز عبر الأكثبة الرملية. فرأيت الغفاري ممدداً، والقبر ممهداً، وما من قافلة عابرة تقرأ عن المرتبذين فاتحة الغابرة . فقد انقدَّ الدرب، وضاق الرحب، واحتربت الأطماع، وانطمس الوجه بالقناع.

واريت توأمي الثرى، وحط البلبل فوق الشاهدة وأرسل ألحان المعادّة والندب فترددت أصداؤها في المشرق الذي شرق بشروقه ، ومزِق وترُ نهضتِه، فغارت ركبتاه في غار الغربة والشرك.

رأيت أناسا قدموا من البرازخ يقدِّمون العزاء فخطر لي أن أسألهم عن حلُهم وترحالهم وأحوالهم، فانبرى أحدهم وكلبه باسط ذراعيه في وصيد القبر وقال:

ـ في كهف رطب مظلم
بمساحة كل الأوطان المقهورة
أغلق فمه حجر حدَّره سيل البهموت
كنا أربعة
انطفأت في أعيننا أزمان اليقظة
فجأة
جلجل في قيعان الكهف الصوت أتِيّاً من وديان الوأد الأكبر
قال الأول : هذا صوت الرعد
قال الثاني : إنها القارعة
قال الثالث.. قال الرابع..
والأقوال أثافيٌّ ورجوم
عاد الصوت يجلجل:

مات الطفل وثدي الأم تحطب
انهض..
انهض يا فرح الأمس الثاكل رغد الغد
لا يحملك النوم إلى شطآن الراحة
لا يبعدك الرحم الرطب عن الميلاد
انهض
ما أنت بميت
دمك الأحمر لم يصبح مِزقة ليل
تحلم، تبصر، تتقلب، تصغي ، تتنفس
كالأفعى في جسد البرد
انهض
فالمنتظرون على الشاطئ فلكك غاصوا في
المهل إلى الأعناق
وكل الكلمات المزروعة فجراً، زنبق، وردًا، نورًا
يبست
وخفافيش الشوك
دمك امتصت
انهض

مات الطفل وثدي الأم تحطب

صمت المكتهف الأمسَ برهة، ثم طال صمته، فاستوى الربذي في قبره وقال : هل أكمل لكم الحكاية، وإنها مثل كل حكاية فيها خان وخان وصاحب شرطة، وأمير وفقير، ونمرود وداع ومحرقة. ورابذ ومربوذ وربذة. ثم صفق بكفيه ونادى الشخوص للمشهد.

أخذ الممثلون مواقعهم على خشبة المسرح، وتقدم الراوي باتجاه الجمهور حتى غاصت قدماه في نهر الزمن الميت ، وانطلق محدثاً:

أيقظ أهلَ الكهف النوَّمَ
صوتُ السيل الآتي من ملكوت الجرح
أزاحوا الحجر
انسلوا نحو مدينتهم
قال الأول : كم لبثنا؟
قال الثاني : ما هذه مدينتنا.

هذه مدينة مسوَّرة بـ " ياليل ! "، كل شيء قد تغير، حتى الديكة تنام

إلى الظهيرة، ما عادت توقظ الفجر.
صرخ الخان الأعظم : أية صاعقة نزلت علينا؟
سأل صاحب الشرطة : هل أعلن حالة الطوارئ؟

قال قارون : يا هامان ، هذه أموالي فابن الصرح، حصنه بالأبراج والأدراج، وبالمقاصل والمنازل، وبكل أبتر ، وسراديب خيبر.

اعتلى القادمون من الزمن الأخضر التلال المشرفة على المدينة، وخرج المستضعفون من البيوت وقد اجتذبهم صوت رجل معمم بالحكمة ، مزنَّر بالغضب:

ـ موجة غضب أسأل عنها
أسأل عن مزنة فجر تهطل ناراً فتهز حرارتها رحم الأرض
كل نقود البلد قديمة
ما عادت تحمل للناس الخبز
لا أقسم بهذا البلد
ودم الوردة حِلٌّ في هذا البلد
وعلى الطرقات يموت الناس إذا صمتوا
ويموتون إذا ما نطقوا
ويموتون لأن الخان الأعظم
البهموت الخناس

يوقد شعلة عمره
من زيت الناس!

. . .

أُصمُتُ
والصمت نداء
يسفح في أروقة الليل حروفاً
كلمات لا ترسم في الأوراق
كل الكلمات غدت جثثا فوق الأرصفة الحبلى بالخوف
وعلى الدرب الممتد
ما بين الجرح وبين الصرح
فرسان من شمع
صدئت خوذاتهمُ تحت الأمطار
وبنادقهمْ في أيديهم تغزو كبد الربذة
مَنْ راعٍ يعزف في ناي من نار
يوقظ في هذا البلد الفجر؟

. . .

اخترق المسرح ذاك النمرود الوالغ في الشهوة والدم
ـ ابنوا محرقة
فيها النار تعربد
أحرقوا الكلمة..

. . .

قذفوهم في أقبية النار
راح النمرود يؤلف أغنية
مرَّ النور العلوي عليهم قال:
" يا نار كوني برداً وسلاما "

لا تحترق الفكرة
لا ينطفئ الصوت الآتي من ملكوت الروح الأعلى
المتغلغل في جسد الأرض
النابت كلمات بهار في ملح التربة
الماء يسافر في الذرات
يغيب..يغيب طويلا
ثم يعود إلينا خصبا
قد يزهق سيف الطاغوت الأرواح

وتنساح دماء فوق الأرصفة التَّربة
ودموع الأطفال العطشى للعب الأخضر
تغسل ساحات مدينتنا الهرمة
لكن الفكرة لا تحترق.

. . .

احترق المشهد ..

نهض الربذي المتوحد من قبره، نفض عن رأسه غبار الموت، التفت صوب التلال المكللة بأشجار الغار والعار، خاطب الجمع المحتشد المنتظر الكلمة:

" **أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني ألاّ أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبَرَت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرّاً ، وأمرني ألاّ أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من : لا حول ولا قوة إلاّ بالله، فإنهن من كنز تحت العرش**" [1]

خفق بلبل الدمّ بجناحيه، وأذاع سكَّر الحبيب المصطفى بمنقاره: " **ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء، على ذي لهجة أصدق من أبي ذر، من سرَّه أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبي ذرّ**"

وضع أخي الربذي قدميه في القبر، واغترف بعينيه الأزمنة الماضية والآتية، والتحف بغضب المستضعفين البؤساء، وقال:

" **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت الوصية** " وهذه وصيتي للأقربين والأبعدين. للجاهلين والغافلين. للسالكين والركّع السجود.

ـ التحف بالغضب
وانهمر مطراً من كبريت ونحاس
يغسل صدأ الفاس
باسمك ندعو
من أعماق الجرح النازف
التحف بالغضب
وتدثر بالرعد
وتزمل بالبرق
وادفع بالناس إلى يقظة طوفان علوي
واصنع الفلك بأعيننا
واصرخ بالمرتبذين المضطهدين المحرومين

---

[1] () *ابن سعد: الطبقات الكبرى ج4 ص 222.*

تعالوا
وسترسو الفلك على جبل الجودي
سنزرع في رحم الغربة حباً، خبزاً، أملا
وسنعمر أرجاء الكون بحاءات الحق، الحرية، والحب
ونعيش .. نعيش سلام الرحموت
وغداً
نكتب عن أيام الجوع، الموت ، القهر الأصفر
ويموج الناس سنابل في ملكوت الأرض العطشى
للفرح الأكبر
وتزغرد في أرحام النسوة
أطفال في طور التكوين
شوقاً للزمن المأمول الأخضر

التحف بالغضب
وانهمر مطرا من علِّيِّين
واصدع بما تؤمر
وأعرض عن المشركين.

أنهى أخي التوأم وصيته وعاد إلى قبره فتمدد، والتحف بالثرى، والتحفتُ بالحزن. انفضَّ الجمع إلى برازخهم، وتركت العجوز وهي قائمة تسقي القبر زمزم الغناء والدعاء كي لا تجففه شمس الصحراء ، ثم قفلت عائداً ومعي البلبل.

معراج الميم

4

طائر الفرح الأصغر

اقتربْتُ من الفلك وهممتُ بالصعود فتثاقلت قدماي، وفقدت قواي، ووقفت أمامها عاجزاً عن الحركة، ولج بي التحير.

اندفعت " حـم " وأمسكت بيدي وهَمَسَت في قلبي:

لن تستطيع ركوب الفُلْك حتى تخرج من فَلَك الحزن، فالحزن حجاب.

وهَمَسَت في قلبي: الحزن خروج من فلك العشق. والعاشق لا يعرف غير السعادة في القرب وفي البعد.

وهمست في قلبي: كيف تحزن على أخيك التوأم وهو معك في السفينة. فإذا اغتسلت من حزنك سكنت فيه وسكن فيك وتوحدت التوائم.

وهمست في قلبي: " **كل نفس ذائقة الموت** "، ولو أدركت معنى ذائقة، وأن الميت لا يتذوق، لأدركت أن أخاك الميت الحي سعيد بما يتذوق الآن.

وهمست في قلبي: كيف تقول أخي قد مات وهو لم ينقطع عن أنوار المكاشفات والتجلي.

وهمست في قلبي: لقد لامت طائفة أخاك وقالت: لم تركت السيف؟ وما أرادوها إلا فتنة عمياء. فاحذر أهل الفتنة، فإنهم يقاتلون بسيف الشيطان.

وهمست في قلبي : الموت حرية ، فمن يرضى لنفسه أن يكون مثقلاً بالسلاسل في ظلمة السجن؟

وهمست في قلبي : الحياة غدوٌّ، والموت رجوع، وما المرء إلا طائر يغادر عشه صباحا ويعود إليه مساء.

وهمست في قلبي : الموت حرف في مقام، وجسر إلى القيام، فإذا عبرت هذا الجسر وصلت إلى القيامة.

وهمست في قلبي : الفرح الأصغر الذي يحمله الموت لا

يسع جناحيه البدن، ولهذا فإنه عندما يأتي طائر الفرح الأصغر يخرّ البدن صعقا.

وهمست في قلبي : كيف تخشى من الموت، وتحزن على من أصابه الموت، وأنت الذي من أجله خُلق الموت والحياة. والسماوات والأرض ؟

وهمست في قلبي : كنتَ حرفا في عماء، ثم خرجتَ إلى النور ، ثم خرجت من النور إلى الظلمات، فاخرج من الحياة تخرج إلى الموت، واخرج من الموت تخرج إلى أنوار القرب، واخرج من القرب تخرج إلى الفرح الأكبر. وفي حقول الفرح الأكبر سترى الله.

وهمست في قلبي: كن كما أنا، لا الموت يعرفني ، ولا الحياة تعرفني- وأنا أعرف الموت والحياة.

وهمست في قلبي: لا يبدأ العمر بالولادة، ولا ينتهي بالوفاة. فالحياة مقام والموت مقام والآخرة مقام. ثلاث مقامات على طريق تدور حول النور." **وكل في فلك يسبحون** ".

وهمست في قلبي: الموت حين لا ترى حبيبك، والموت حين تراه، فاحرص على رؤيته تدرك لطائف الأسرار، والمعرفة هي الحياة.

وهمست في قلبي: انظر إلى الميم فنظرت، ورأيت ملكوت السموات والأرض يلفه ميم الموت، وعلى الحائط الفاصل بين الجنة والنار يُذبح ميم الموت، وأنا في مقام الشهادة أنادي الظبية الخوّافة: علام تفرين من الصياد أيتها الظبية الشاردة.

وهمست في قلبي: إذا انسلخت كما الحية من الحاءين : الحيثية والحينية زالت عنك حمّى الرهبة ووُهِبْتَ الثالثة، حاء الحياة، ولكنك لن توهَبَها ما لم تدرك حاء الرحمة.

وهمست في قلبي: في كل نفس صحراء، وفي كل صحراء ربذة، وفي كل ربذة قبر، "**وما تدري نفس بأي أرض تموت** ".

وهمست في قلبي : الموت الأحمر مخالفة أهواء النفس، والموت الأبيض الجوع، فالبطنة حجاب. والموت الأخضر لبس الصوف والأسمال فإنها تخضرُّ وتتجدد بالقناعة. والموت الأزرق العوم في بحر الأسرار والعرفان حتى تصل إلى جزائر اليقين. والموت الأصفر هو اصفرار الأفعال وسقوطها في خريف العمر المكنون حتى ترجع الشجرة العارية إلى جذورها. والموت الأسود هو احتمال أذى الخلق في الطريق إلى الحق. أما الموت الأسنى الذي لا لون لـه فهو رؤية الرفيق الأعلى تحت سدرة منتهى العشق.

وهمست في قلبي: الموت هو أن يشغلك المتاع عن الموت- المال متاع، والملك متاع، والشهوات متاع، والصروح متاع، وكل جمال غير جمال الله متاع." **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ". فقل للذين توثنوا وتجبروا وتحصنوا في

أبراجهم : " **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ". ولو أنهم تحصنوا في بروج القلوب لما أدركهم الموت.

وهمست في قلبي : يحكى أن ملكا كان لـه كلب كلْبان، في أزقة المدينة فلتان، يهز ذيله مختالا، ويدخل البيوت بلا استئذان. يأكل اللحم ويمصمص العظم، ويعض النساء والشيوخ والأطفال، ويُجْهز على الشبان.

و مات كلب الملك فخرج الناس جميعاً في جنازته يرسلون الدموع ويلطمون الصدور، ولما مات الملك لم يخرج في جنازته أحد.

وهمست في قلبي : " **لن تقوم الساعة حتى يلج الجمل في سم الخياط** ". والعارف يدرك أن القيامة قائمة منذ أن فرغ الله من الخلق. أما ترى النجوم تدخل في سم الثقوب؟ أما ترى الشمس تدخل في سم التكوير؟ أما ترى الغنيَّ يدخل في سم النار " **يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم**؟ " أما ترى السلطان يخلع تاجه وصولجانه، وحاشيته وعساكره ويدخل في سم القبر؟ أما ترى العظام تدخل في سم الرميم؟ أما ترى الأعمال تدخل في سم الحساب؟ أما ترى الملكوت يدخل في سم التبديل؟ أما ترى الدنيا تدخل في سم الآخرة؟ فاحرص على أن يكشف لك محبوبك عن وجهه حتى تلج في سم الرحمة، ولن يكشف لك محبوبك عن وجهه الأنور ما لم تعرفه بقلبك وتتقرب إلى عياله بأعمالك.

وهمست في قلبي : أول معرفتك بالموت ألاّ تسأل عن الموت، لأنك إذا سألت عنه جهلته، وكيف تسأل عنه وهو فيك، وأنت في كل نَفَس تحيا وتموت.

وهمست في قلبي : إذا كنت مَلِكا فاطلب العدل. إذا كنت جلاّداً فاعلم أنك تضرب الأعناق بسيف من ورق ويضربك الجبار بسيف من نار. إذا كنت قاضياً فاملأ قلبك بالنور. إذا كنت فقيهاً فاعلم أن مسجدك في قلوب الناس. إذا كنت فقيراً فابحث عن الذين سرقوك، إذا كنت غنياً فتذكر أن الملك لله. إذا كنت شاعراً فاملأ قلبك بالحكمة .. وأياً كنت فردد مع الذي استغني بالآيات البينات عن الأبيات:

كلما ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

وهمست في قلبي إذا خفت الموت فتقوَّ بالشرب، حتى تصل إلى الريّ، فإذا وصلت إلى الري فنيت في الحق ولم تعرف الموت، ولكنك لن تصل إلا بالعشق، ومبتدأ العشق تذوّق الجمال وذلك مبعث السكر، ومن قوي عشقه تسرمد شربه، ومن تسرمد شربه خرج من السكر إلى الصحو فكان غائباً عن الخلق صاحياً بالحق فانياً عن الأرباب والملوك، ومن كان فانياً في الحق أوتي من الشجاعة الصمدية ما يجعله في مرتبة أعلى من

الموت والحياة حيث ينذر نفسه ويبيع روحه للوقوف في وجه كل ظالم من الأرباب والملوك، ولا يزال من كاسات القرب والمحبة يستزيد.

وهمست في قلبي : الشمعة تذوب وذرات نورها تظل عالقة في الفضاء، ومثلها الأجساد تسافر في التراب وتقيم الأقوال والأعمال في خيمة الذكر لا تبرحها. مازال سقراط يحاور تلامذته، والعطار يعطر الأرواح بمنطق الطير، وابن سينا ينشد هَبَطت إليك من المحل الأرفع، والسهروردي يعلم مريديه حكمة الإشراق، والمعري يخفف الوطء . .

طوبى لشموع المعرفة والإيمان والحكمة . . ألا ترى أن الموت إذا طلع تزاورعن كهفهم؟

وهمست في قلبي : جهل النفس جوع . وصمم الروح جوع. وعمى القلب جوع. والجوع هو الموت، وقد زودتك بالخبز وصوت البلبل فعلام تشكو من الضعف ؟ أم أنك كالذين هم "**صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يبصرون**".

. . .

تذكرت أرغفة الماء فتناولت واحداً منها، وانطلق البلبل يشدو فأوّبت معه وأوبت معي الجبال والسهول ، والنجم والشجر، والشمس والقمر ، ومن كل زوجين اثنين ، حتى اضطربت السفينة بالنغم.

أحسست بالقوة تسري في عروقي، فقفزت إلي السفينة وجذبت مرساتها، ورفعت أشرعة السفر مبحراً من هذا المقام إلى جزيرة أخرى من جزائر البحر المحيط.

معراج الــدال

5

قالت لي "حـم ": إذا طابت لنا الريح، ودخلت السفينة في بحر السلام فتعلَّم الرحمة والعدل والحق من الشيخين.

قلت: من تقصدين، فقد طالت اللحى وقصرت العقول؟

قالت: أما الأول فصاحب الغار، وأما الثاني فسراج أهل الجنة.

أوغلت السفينة في يم التَّوْق وأنا أنشر أشرعة الشوق حتى لم يبق شراع لم أرفعه،ثم اضطرب البحر ، ودخلتُ في ظلمات بعضها فوق بعض.

قالت لي " حم ": هل رفعت جميع المراسي أم أنك نسيت مرساة لم ترفعها؟

وأدركت أنني نسيت واحدة، فأسرعت ونزعت مرساة السفينة الحوامة عن صخرة النفس اللوامة ، وسرعان ما لاحت لي منارتان في عتمة البحر والليل ، فاهتزني الشوق والطرب، وعلمت أنها جزيرة من جزائر الفرقان.

تابعت إسرائي باتجاه الضوء، وصوت البلبل المغرد يمدني بالقوة، وأنفاس " حـم " تُندي روحي اليبوس، حتى أرست السفينة على الشاطئ.

استقبلتني " **أسماء** " بوجه منير كفلقة الصبح، وقد أرخت وشاحاً أبيض على رأسها وكتفيها، وحملت في يدها صرة فيها طعام لصاحبين اغتارا في الطريق جنح جبل، وعلى ثوبها الرملي طرزت حكاية حزن مقدور: قلوب مستعرة، وسيوف مشتجرة، وكبد مصلوب، وفتنة لا غالب فيها ولا مغلوب. وكان يتبعها طفلها حافي القدمين. وخطر لي أن أسألها عنه فقالت:

ـ هذا الفارس الذي لم يترجل.

وجالت في عينيها دمعتان كأنهما لؤلؤتان.

أشارت إليَّ أن اتبعني وقالت:

ـ هتفت لي " حـم" أن أوصلك إلى الشيخين، فإذا لقيتهما

فتأدب فهما منارتان، واحرص على أن تسأل ما بدا لك حتى يتكشف أمامك الطريق فهما العارفان.

ثم اشتملها الصمت والدمع والخطو الوئيد حتى شارفنا أسوار طيبة فتوقفت ومدت يدها إلى صرتها وناولتني كسرة من خبز وقالت:

ـ هذا طعام المهاجر.

ثم قفلت راجعة يتبعها ابنها الصغير وقد رأيته يكبر في كل خطوة يخطوها، ويكبر، ثم يرتفع عن الأرض حتى رأيته مصلوباً والدم ينزف منه.

مكاشفات صاحب الغار

كان الشيخان جالسين على ضفة نهر تتحدر مياهه بين الشعاب. أما صاحب الغار فقد اغتار في كهف ثاني إثنين، وأما السراج فقد استرج عين النهر ونام في ظل شجرة آمنة.

قال لي صاحب الغار:

ـ اغتسل بالماء.

بسطت كفيَّ إلى الماء فلم ينهض إليهما الماء، ورحت أنتظر المد وقد ابتلع الحوت القمر.

قال الشيخ:

ـ لا يغتسل من لمْ يلجِ اللجة.

تحيرت فأنا لا أجيد السباحة، وعلمت إن دخلت النهر غرقت وجرفني التيار.

تبسم صاحبي الشيخ وقد رأى تحيُّري وقال:

ـ إن خلعت أثوابك لم تغرق، وإن اغتسلت بدموعك لم تغرق، وقد عصمني من الغرق أنني اغتسلت بنهر دموعي، فكنت أبكي كلما سمعت صوت حبيبي، فتعلم أيها السالك من شيخ الطيور المهاجرة بأجنحة الدموع إلى هاتيك الربوع.

خلعت أثوابي ورميت نفسي في الماء فأحسست بالبرودة ترعش جسدي .

قال صاحب الغار:

ـ وهل الدنيا غير هذه الرعشة ثم يدركك الماء، اخرج إلينا فقد طاب قطاف الأحاديث.

خرجت من الماء وبحثت عن أثوابي فلم أجدها، ورأيتني وقد ارتديت الماء، ورأيتني بلا عورات من غير أن ينقص من جسدي شيء ، ورأيت نفسي بلا صفات من غير أن يعتورها تجريد.

قلت متعجبا: ما هذا النهر؟

قال: هذا نهر ينبع من عين العشق، يجري في القلوب ليصب في عين الحق.

قلت: وما عين العشق؟

قال: عين العشق دموع . أما قرأت مصحف العاشقين " **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** "

وسألته عن الغار فقال:

ـ كنا ثلاثة وقد غفلت عن الثالث فذكرني النور الذي كنت لـه صاحباً فتقوّى قلبي بذكره.

وسألته عن أناس دخلوا سرادق الأنوار ثم ارتدّوا إلى مغاور الظلال، فقال:

ـ هؤلاء لم يخرجوا من ظلمة النفس المسيلمية، ولم يفتحوا قلوبهم لرؤية محاسن الحبيب القدسية، فكان عليَّ أن أفتح أجفانهم بالسيوف الخطيَّة. لكن القلوب لها أقفال، إن كانت صدئة لم تنفع معها مفاتيح الأسرار، فإذا سألتهم " **قالوا قلوبنا غلف** " فتراهم عمياً وهم مبصرون " **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ".

وسألته: أيها القَرّاء كيف يتغشاك البكاء في القراءة والصلاة حتى تذوب الحروف ويسيل صهيرها في الكلمات المنداحة فـلا تبين العبارة، وغيرك، سلطان العاشقين يتغشاه الطرب فيتعرى عند الطلب؟

قال: هو الوجد.

قلت: وما الوجد؟

قال: الوجد لهيب ينشأ في الأسرار لرؤية معنى من معاني المعشوق، فإذا جمح الشوق فتح المشوق نافذة على المشاهدة فتضطرب الأعضاء طرباً أو حزناً، وتسيل الحروف صهيراً.

قلت: وكيف أصل إلى الوجد؟

قال : بالمعرفة، فإنها ثابتة لا تزول.

قلت: وكيف أصل المعرفة؟

قال : بالحضور، أما سمعت العارف بالله ينشد:

الوجد يُطلب من في الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

فاحرص على الحضور في الغلبة والسكون تحصل على أسرار المعارف.

قلت: غَلَب عليك السكون وغَلَبت على صاحبك النائم هذا الغَلَبة، فأيهما أسلك؟

تناول الشيخ حصاة من الأرض وحذف بها جفن الماء فانداحت دوائر الأسرار وقال:

ـ وهل تسلك ما لا تملك؟ " **ونفس وما سوّاها** " الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب، ولا مراعاة الأدب

من خوف أو هيبة أو نصرة للحق أو إجلال له أو حياء، فمن لم يعرف حاله أنكر عليه أحواله، فلا تكن منكراً إن كنت جاهلاً، فهذا أبو لبابة غلب عليه الخوف فربط نفسه بالعمود، وأبو طيبة غلبه الحب والإجلال فشرب الدم، وهذا صاحبي غلبته النصرة في الحق فقال " **علام نعطي الدَّنيَّة في ديننا** "[1] وغلبني السكون فقلت لصاحبي من غير أن أنكر عليه ما هو فيه من حال : "**الزم غَرْزَه فإني أشهد أنه رسول الله**".[1]

قلت : وما قولك في الوصال والاتصال؟

قال : الوصال طعام كثيف، والاتصال شراب خفيف، إذا نهلت جرعة منه صرت أثيريا، وعرج بك إلسكر إلى سكر المعشوق، حيث رياض من مشاهدات الأسرار ومكاشفات القلوب، ثم أردف: الوصال حركة عَنْم والاتصال حركة نور، ولو سكنت جوارحك اتصلت.

بالاتصال تصل إلى عين القلب، وفي عين العين يسكن اليقين، فإذا جزت إليه علمت أن اليقين هو اتصال البين وانفصال ما بين البين، ولكنك لن تجوز إليه إلا على ترنيمة شوق مجنحة، والشوق مطر يهطل في القلب دفعاً، ثم يسيل في العين دمعاً، ولو أنك لم تترك بلبل الدار في السفين لحملك وأنت في موقفك هذا على ترنيمة شوق إلى سكون اليقين.

أبحرت في لجة الأحزان والتفكر، وناديت في سري " حـم " فعلمَت أني في شدة، فأيقظت بلبل الدار.

انطلق بلبل الدار من قمرته وعلا سارية السفينة وأرنَّ منشداً.

هبت نسمات عذاب حملت إلى قلبي المشوق صوت البلبل: ترانيم لا تسمعها آذان، ولا تحتويها حروف. تهطل من عليين غيثاً على أرض شققها الجفاف.

أبداً إذا مطر الهوى أشتاق	**والعارفون جميعهم عشاق**
أحيا على ذكر الحبيب وآله	**والحب في طِب الهوى ترياق**
من فيض عين الجمع أعرف الروي	**وهو الحبيب الخمر والإشراق**
ما البحر يا ظمآن إلا جرعة	**ما الكاس إلا ذكره العذاق**
أقسمت إلا أن أعوذ بحبكم	**حتى وإن أجروا دمي وهراقوا**
كم عاشق قبلي تشعشع روحه	**ودم المحب إذا أبان يراق**

---

[1] () السؤال لعمر بن الخطاب والجواب بعده لأبي بكر

أتلومني أتلفت نفسك في الهوى ... وحمالة يا عاذلي وذاق

ويظل مستترا لفرط ظهوره ... فإذا تجلّى امتدت الأعناق

قالوا افتقرت فخذ طريقا للغنى ... وأنا الغنـي بنوره المشتاق

أمضيت عمري في معابد حسنه ... والحسن في درب الهوى الزرّاق

فمتى ينوِّرني الصباح بوجهكم ... والفجر في جيد الدجى أطواق

هلاّ طلعتم من ثنايا سكرتي ... فالحب إن شط النّوى إملاق

أغدو الأسير إذا تواصل بعدكم ... وإذا تقبَّضني الهوى أهراق

يا راحلين إلى الحبيب تمهلوا ... واقضوا لبانة عاشق يشتاق

قولوا لـه : إني فنيت بحبه ... إن الفناء بحبه إشراق

قولوا لـه : قد أنْيلتني قربه ... واستافني جسمي الهم والإرهاق

قولوا لـه : للعاشقين كرامة ... وكرامة العشاق أن يتلفوا

جودوا بوصل لا يجود بمثله ... إلا المحب الطاهر المشتاق

هكذا تكلم السراج

أيقظ الغناء الشيخ النائم، فتح عينيه ونظر إليَّ بدهشة.

قلت : لقد عدلت فأمنت فنمت.

استيقظت في سره أزمان غافية وقال:

ـ من أنت ومن أي زمان جئت؟

قلت : سالِكٌ يجمع طاقة من الزهور جاء من زمن الردة والديجور.

قال : أي زمان هذا ؟ وأنا من اقتدت من ملِكين، قلت للأول : لا فرق بين الملك والرعية ، ولا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى. وقلت للثاني : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

قلت : في زمن الردة والديجور عبيد وأحرار. وسوقة وملوك. وفقراء مملقون وأغنياء تكاد تنفجر منهم البطون. وآلهة من دون الله يُعبدون. وعتاة لا يطالهم قانون. وكتاب مشغولون

عن الصحف بالتصحيف، وفقهاء ولغوا في التحريف والتجديف.
قال : وأين الرجال ، أما فيهم من يقول كما قال ذلك الأعرابي: **والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقوَّمناك بسيوفنا؟**

ما كان الشاعر للسلطان نديما
ما كان الكاتب للبهتان أديما
ما كان الفاقه للشيطان كليما
ما كان الحامل نور الحرف زنيما
ما كان السيف لغير الحق مقيما
فتبصر حرفك في عصر
تتهاوى فيه رموز الحرف
تحسس خطواتك في أزمان سقوط القيم الكبرى

قلت : وبماذا تنصحني في زمن السقوط؟
قال : ألزم الحق ينزلك الحق في منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق.(1)
قلت : وهذه الدنيا؟
قال : إنما الدنيا أمل مخترم، وأجل منتقص، وبلاغ إلى دار غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله امرأ فكر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه.(2)
قلت : إذا عدت إلى قومي فماذا أقول لهم وفي نفوسهم ظلمة؟
قال : إذا عدت إلى قومك فقل لهم:
اقدعوا النفس عن شهواتها فإنها ظلمة. فإنكم إلاّ تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية.(3)
وقل لهم:
إن هذا الحق ثقيل مريء . وإن الباطل خفيف وبيء.(4)
وقل لهم:
ترك الخطيئة خير من معالجة التوبة.(5)
وقل لهم:
رب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا.(6)
وقل لهم:إن من كان إذا سلك فجا سلك الشيطان فجّاً غير

فجّه كان يرسل عماله ليقضوا بين الناس بالحق، ويحكموا بالعدل، لا ليضربوا أبشار شعوبهم ، ولا ليأخذوا أموالهم ، ولا ليجعلوهم عبيداً لهم أو يعبدونهم من دون الله (6).[2]

وقل لهم: كان هذا السالك الذي يحمل الطحين والسمن على ظهره لصبية يتضاغون جوعا وينفخ لهم في النار حتى تسود لحيته من الدخان.

وقل لهم : كان هذا السالك يخلط الآجر حيناً، ويقتلع الشوك حيناً آخر، ويحمل حزمة الحطب على كتفه يمضي بها وسط المدينة. وإذا أجنَّ الليل كان يحمل قربة الماء كالسَّقاء إلى العجوز.

وقل لهم: إن هذا الذي ألقيت على كتفيه عباءة الحكم والعدل جاء مرة إلى أويس[3] مضطرباً وقال: لقد ألقي هذا الأمر على كاهلي، فإن يوجد لـه مشترٍ، أبعه ولو بدينار.

وقل لهم: إن هذا الذي كان إذا نام فالحصى فراشه، والدرَّة وسادة رأسه، كان يقتص من عمّاله بالدرّة أمام الناس إن رفع عبد من عباد الله مظلمة ضدهم. كان الضعيف قويا عنده حتى يأخذ الحق له، وكان القوي ضعيفا عنده حتى يأخذ الحق منه ويقتص ؛ وبهذا استقام العدل.

قلت : ولماذا سميت بسراج أهل الجنة؟

قال : هكذا سماني الحبيب حين رأى روحي وهي تحترق من ألم العشق، ولساني يحترق من نطقه بالحق.

أيها السالك في هذه الطريق كن كشمع الجنة يذوب اشتياقاً فينير ،طوبى للأنفس التائهة، وأمام هذا النور تتلاشى جميع الظلال.

قلت : إنك تدلني على طريق في السلوك تجعل المملوك أميرا..!

قال : يا عبد الله .. كلنا لآدم وآدم من تراب . عاريا يكون المرء تحت التراب إلا من أعماله، لا حسب ولا مال، لا جاه ولا سلطان. وهذه الدودة الصغيرة تلتهم الملوك والوزراء، والأغنياء والفقراء.

يا عبد الله .. ألم تقرأ مقال أخي في الله ؟

" أين العمالقة وأبناء العمالقة؟
أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟
أين أصحاب مدائن الرسِّ الذين قتلوا النبيين،
وأخفوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟
أين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف،

---

2 () *(1ـ6) أقوال لعمر بن الخطاب*

3 () *أويس القرني عاش في نجد معتكفاً، عاصر النبي"ص" ولم يره لغلبة الحال وحق الوالدة. خرج من معتكفه ليقاتل مع علي"ر" ويستشهد*

وعسكروا العساكر.

يا عبد الله..

لا يؤيسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل.

ألا فاذكر هادم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات".*

قلت : كأني سمعت هذا الحديث من أخ لك في الله ..

قال : هذا حديث الدم.

ولما أدار ظهره رأيت خنجراً بفلقتين مغروزاً ودماً ينزف. التفت إليَّ وقال:

ـ كان هذا أول الدم، وآخره يوم تزلزل الأرض وتخرج أثقالها من الدماء.

يا عبد الله .. احرص على ألاّ تكون الطاعن، فالحقُّ دائما ينزف. وإذا تحيَّرت فالحَق بأخ لي يدور مع الحق أينما دار .

تركت الشيخين، وعدت إلى السفينة. رفعت أشرعتها ماخراً عباب البحر المحيط باتجاه دائرة أخرى من دوائر السلوك .

□□

* *من نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب(ر).*

معراج الهــاء

6

نحن في أرض الحضرة يا ساقي أدرها ... واسق صحبي من دنان الرحمات

واغترف من وجه معشوقي سلاما ... عنبـرياً نوَّرته البسمات

عاشق، من لا أراه ويراني ... ملَّ في قلبي كخفق النسمات

كلّما أمعنت في السكر تجلى ... قمراً وسط جموع النيِّرات

صُبَّ لي يا أيها الساقي وأنصت ... إنني أسمع خطو الكلمات

هذه الكاس ارتوى العشاق منها ... فأتوا في عشقهم بالمعجزات

لا تلمني، نافخ البوق لحشر ... في الهوى، فالعشق نبض الكائنات

أيها الظامئ هذي كاس حر ... فاغتبق من روحه قبل فوات

رمم النّازف في النهر كتاب ... وهو للسالك درب وحياة

جاء من صفين جرحاً طالعاً ... في القدس يرمي الجمرات

أي كاس شفتاه لامستها ... لم تضرج بدماء زاكيات

نحن في أرض الحضرة يا ساقي أدرها ... بين صحبي إنه الحق الفرات

أي نفس في ضفاف الوجد ارست ... لم تعطر بأزاهير الصفات

يدور مع الحق حيث يدور

حين أرست السفينة في ميناء " **ولا تحسبَنَّ** " كانت " **ق** " في انتظاري على الضفة الشرقية من إيمار وهي ترفل في ثوب البنفسج، وضفائر شعرها النورانية تتجدول على كتفيها، وعلى شفتيها ابتسامة أضاءت ما بين المشرق والمغرب، وفي عينيها الذابلتين الوامضتين تنعس سورة الدهر.

أحسست بالعشق يزهر في ضلوعي، وأنا بين الضفيرة والضفيرة أعوم في مياه برزخين: من صحو وسكر، وما من شاطئ أتمسك به فأنقذ نفسي من هذا الجمال.

أشارت إليَّ " ق "ببنان مشرق اليقين وقالت:

ـ يا ابن " حم " هذا النهر شهد ميلاد أزمان وأحداث، وحضارات وشعوباً، جرفها تيار الحدثان نحو بحر النسيان. فتعال معي ، واشرب كأسا منه، قبل أن تنحسر مياهه عن جبل من ذهب ويقتتل الناس فلا يحجزهم عن الدم غير دقّات الساعة.

ملأ محبوبي " ق " ذو الضفائر البرزخية كأسا من ماء الفرات وقدمه لي وقال:

ـ تقدس ماء شرب منه ابن سميّة.

أحسست بالغيرة تغزو قلبي المزهر بالعشق ، فتبسم مشفقاً وقال:

ـ لا يجدر بالعاشق أن يغار من عاشق مثله، مادام المعشوق لا يخفي جمالاته عن العيون.

ثم نهض ونهضت، ومشى ومشيت، وبما أن محبوبي كان كثير الحركة، دائب الدوران فقد كنت أدور معه حيث دار.

سألته ذات يوم: هل أحبك أحد قبلي مثل هذا الحب، وأنا الذي أدور معك حيث تدور؟

تبسم ضاحكا من قولي وأشار بيده في الهواء فإذا عمود من النور يهبط من السماء، وإذا رجل مجلبب بالخضرة يحمل المدائن على كتفيه يبرز من جسد النور.

ـ أجبه يا حذيفة. قالت " ق "

مد حذيفة ساعديه وأمسك الفرات من طرفيه ولواه حتى جعل مصبه ينتهي إلى منبعه، والماء يدور ويدور في تلك الدائرة، ثم أشار إلى مركزها فرأيت فتى كنجمة الصبح يجلس على عرش من ياقوت، وعلى كتفيه وشاح ينضح حالي العطر ويندا ح في النهر.

قال حذيفة: ذاك ابن سمية، عشق الحق حتى فني فيه، يدور معه حيث يدور.

وأنت أيها العاشق، ما أنت إلا قطرة ماء في فرات العشق، وحتى تكمل الدائـرة وينتهي بك المصب إلى المنبع لابد أن تتحرر من الغيرة، وتتسلق صخـــور الأسرار، وتدرك أن هذا الجسد حفنة من الغبار في مهب الإعصار، وأن العمـر قشة في أتون مشتعل. ولابد أن تنزع عنك نحاس الجسد، وتخرج من سلاسـل العمر، فتقاتل المرتدين وتتحرر في صفين، كي تكون أهلا لذاك المقام من الهوى، والهوى أيها السالك في طريق العشق هو الهوية .

ألا ترى ذاك الذي يجلس على عرش من ياقوت قد لجَّ به الهوى، فهو ينهض من ضريحه متجها إلى النهر يحتسي كأسا من فرات الشهد والشهادة، يعبر الأزمان، وينادي في القوم مرعدا حتى تهتز لصيحته جبال اليمن.

هذا زمن الردة
زمن شتوي
يمطر كبريتاً، حمضاً ، ودخان
قريتكم في الأرض خراب
أنفسكم حتى القيعان يباب
وتزين معاصمكم
أقياد تمنحكم
وَهْم أمان
وشيوخ قبائلكم
في أروقة السلم الأبتر

يتهادون الأنخاب كؤوساً مترعة
بصهيل هزائمهم
وخوابي خزيهم الأصفر
قد ختمت بالشمع الأحمر

يا أهل الردة
هذا زمن التضبيع
بدعوى التطبيع
من يوقظ تاريخا من رقدته
ويدور مع الحق الأعلى حيث يدور؟
من يحيي أرضاً
كان الإنسان كريما فيها

لا يظمأ، لا يعرى
لا يستف تراب القهر
لا يهزمه في معركة العيش رغيف
لا تتغوله الغيلان..؟

من رجلٌ
أترع بالعشق مشاشه
حتى صيَّر قلبه
جوهرة للحق
يَكوي بسفافيد الذهب المكنوزِ
جُنوبا وجِباها
ما سجدت إلا بين قرون الشيطان..؟

مَنْ رجلٌ
في المعشوق الأسمى
يفنى
مقتحماً
في الجُلّى
زبد النار؟

في السوق السماوية

خرجت من معاشق إيمار، وحملتني مركبة الزمان إلى مدينةٍ شَهباءَ شَهِدَت مولد التاريخ، تعرش السيوف والرماح على أسوارها.

جلست عند بابها الموصد بالآلام، مسنداً ظهري إلى أسوار الفجر، منتظراً إطلالة المحبوب، حتى إذا لاح لي فرسه في الأفق الغربي، مكللا بالنور، لوحت بمنديل الشوق، فأطل علي من هودج جماله، ورشقني بأهدابه، فعجبت من سهام تنطلق ولا قوس، وجروح تنزف ولا دماء، وسكر يسافر في كياني ولا خمر. حتى إذا غرقت في بحر جماله قبضني إليه فإذا أنا في سوق سماوية ازدانت بمصابيح النجوم، وأناس من حولي يعرضون بضائعهم على مصاطب من نور، وأفواج من الملائكة تتزاحم على الشراء. ونظرت إلى متاعي فلم أجد شيئا يباع، فحزنت وبكيت حتى تناهى صوت بكائي إلى المحبوب، فبسطني فإذا أنا في سوق من أسواق الشهباء ، في غرفة من مسجد عتيق فيها ضريح مهيب، وعلى جدران الغرفة قوس معلقة وكنانة وسهام وسيف صقيل ورمح طويل وكرة حديدية يعجز عن حملها عشرة رجال ، وكان صوت الحكواتي من المقهى المجاور يصل إلى

مسامعي وهو يقول:

ـ قال الراوي يا سادة يا كرام، كان في قديم الزمان رجل فداوي اسمه معروف بن جمر، عاش في أيام الملك الظاهر، حارب الصليبين مثلما فعل جده ابن سمية مع المشركين والمرتدين والظالمين، وكان الشيخ معروف صاحب هذا الضريح في سوق الزرب حامياً لباب أنطاكية، وذات يوم طلبه السلطان الساكن في القلعة. ولما ذهب إليه استغل الأعداء هذا الغياب واقتحموا الباب، حتى سُمع صياحُهم في سوق الزرب، فكرَّ عليهم وحده من القلعة وهو يصيح: ازربوا يا ضويهر. إلى أن هزمهم وطاردهم خارج الباب. وجاءه الموت بعد أن أثخن بالجراح، وهو قائم على فرسه، متكئ على رمحه ، والصليبيون ينظرون إليه خائفين لا يتقدمون، يخالونه حياً وهو ميت، إلى أن تكشّف الغم وزال الهم.

قلت لمحبوبي وقد قبضني ثانية إليه :

ـ إني رأيت الشيخ معروف في السوق السماوية يبيع بضاعة ولا تنفد، والملائكة يتدافعون للشراء .

تبسم محبوبي وأذن لي فصعدت إليه درجة فأسرَّ لي:

ـ لو أن الكون أصابته شرارة عشق واحدة لاشتعلت فيه الحرائق، ولو أن الشمس وكواكبها، والأرض وقمرها، وضعت في كفة ميزان، ووضعت في الكفة الأخرى ذرة عشق واحدة لرجحت الثانية. وعندما يكون في قلبك ذرة من هذا العشق فإنك تستطيع أن تخوض المعارك وتكون بطلا لا يشق لك غبار.

ثم صعدت درجة أخرى فأسرَّ لي:

ـ إذا سقطت المدينة فتحصن بالقلعة. ومنها تستطيع أن تنطلق فتحرر دروب المدينة وأحياءها من جديد.

ثم صعدت إليه درجة فأسرَّ لي:

ـ أخلَص ابن سمية لي فخَلُصت له، خرج من الغواسق باحثاً عني فلقيني في الجواسق؛ فاختر دربك كي تكون أهلا لمحبتي، واعرف نفسك تعرفني، ودر مع الحق حيثما دار إن كنت تطلبني، ضعه أمام ناظريك ولا تلتفت إلى الخلف، لو التفت معروف بن جمر مرة واحدة إلى الخلف لما منع الأعداء من اقتحام الباب وهو ميت .. ولكنه أبدا لم يكن بميت.

معراج الراء

7

سورة الإنسان

أمطرت السماء حروفاً مدرارة على صفحة البحر المحيط بالأكوان والأزمان، تواثبت الحروف وتجمعت فتشكلت كلمات، وتآلفت وتعانقت فتشكلت سفينة الحان، قصائدها مكتوبة بدم مقدس: دم الله والإنسان. ومن ملكوت الرحمن أقبل إسرافيل، نوتي الحضرة، ببوقه منشداً:

أيها المتوَّج في الدمن
يا من عَمِي فلم ير الملْك غَروراً، والملكوت خداعاً
إذا رفعتك في نعمائي درجة فصرت سلطاناً،
وزيراً، ثرياً، عالماً، فقيهاً..
فتذكَّر
أنّي أنا الرحمن الرحيم
استخلفتك، وشققت لك طريقاً في الرحمانية
لتكون أرحم بعبدي من نفسه
وتكون شعاعاً من نوري موجوداً عند الجميع
ولا أحد عندك سواي

على ضفاف " **رأيـت** " أرست سفينة النفس اللغوب، وترامى أمام العين الكليلة جزيرة مهموزة الأكتاف، تعمَّمَتْ بأغربة الغيوم، واعتباتْ بغرائب القتاد، وتدثرتْ بالصهيل، وأرنَّت بالحاقة، وعن بعد لاحت وسط الظلام صخرة أذنت بالعروج ومدينة.

ألقت " حم " مرساة السفر الطويل، وأطلقت بلبل الدار فخرج من الإسار، وأسرَى من حرم السفينة إلى أقصى المدينة، ثم حط على الصخرة وراح يسجع:

ـ إنسان .. إنسان

ريحانة هذي الأكوان
الإنسان
صهبـاء الرحمـان
الإنسان
رتّل يا ممتشق الدنيا
في السكر وفي اليقظة
آيات الإنسان

مدت " حم " يدها الممطورة بالنور إلى التنور وناولتني رغيفاً من أرغفة الماء وقالت:

ـ بين الإنسان وبين الإنسان
بين الله وبين الإنسان
باب يطرق
يفتح ..
تبرز منه فتاة من نور وحبور
حوراء
تدعى رحمة
من يرفض أن يطرق هذا الباب
يعبر بوابات الآلاء إلى الرحمة ؟
ـ يا سيدتي.ـ أفي هذا الجو العاصف !؟
ـ في المركز وسط العاصفة الهوجاء
طاقة ضوء
يسكنها الإنسان
ابحَثْ عنها .. وتأهب
للإسراء

أردفت " حم " مستحمة ببسمتها: ستحملك إلى طاقة الضوء أختك " **عسق** " فلا تقلق، وستلقى شيخاً أخضر فتعلَّم، حتى إذا انتهيت إلى طاقة الضوء ومركز الكون الإنسان فردد: "**فبأي آلاء ربكما تكذبان**".

خرجتُ من رحم السفينة إلى ملكوت الشاطئ فاستقبلتني فتاة كالقمر التّم، تعصب جبينها بشريط من النجوم، وترسل على كتفيها شالاً من شفق الفجر، وكانت تسحب ذيل ثوبها الطويل كعروس مجلوة في صبوة الصباح. أشارت إليَّ فتبعتها حتى انتهينا إلى عين ماء زلال فسقتني كأسا أحسست إثرها بالمخاض وخرجت من رأسي نجمة ارتفعت إلى السماء ثم هوت في الماء فتشعشعَت وراحت تتشكل سُوَرا وصُوَرا .

قالت عسق: انظر إلى جسمك النجمي في الماء واقرأ

سورة الإنسان، ولا يقطعنَّك عما ترى وتقرأ ترابُ الأسئلة من جسمك الترابي.

ونظرتُ في الماء إليَّ فرأيت ولادة المجرات فيَّ ، ورأيت الزمان والمكان يرتصان وينطويان في قلبي النجمي، ورأيت السماوات والأرضين والملائكة المجنحة والجنة والنار تسجد حول الكعبة المشرفة في عيني، ورأيت الجبال تسيَّر لأحزاني، ورأيت السماء تنفطر لآلامي، ورأيت البحار تسجّر لدموعي، ورأيت الشمس تكوَّر لجوعي، ورأيت النجوم تنكدر لآه في ضلوعي، ورأيت اليوم الموعود، والشاهد والمشهود، ورأيت أصحاب الأخدود وهم يلقون بي في أقبية ذات وقود، ورأيت منادياً على جبل "ويل" يرجمهم بالقارعة، ويواريهم بالحاقَّة، ثم ينبذهم في الحطمة.

ورأيت.. ورأيت ، ثم قرأت ما رأيت:

من ماء دفق ونهار
من علم لم تعلمه ملائكة الأسرار
عمل الله عجينة صلصال وبهار
قال لها: كوني الإنسان
سبحانه " إذا قضى أمراً فإنما يقول لـه كن فيكون"
اهتز الجسد الميت بنون التكوين
ونهضت
من النِّسي المنسي
على قدميّ
وقبلني من شفتيّ
فسرت فيَّ الروح
وسماني :
إنساناً. سلطاناً. عبداً. حراً. معشوقاً..آدم
علمني الأسماء
علمني كيف أكون خليفته في الأرض
كرَّمني
بسجود المخلوقات النورانية
وعصى إبليس فلم يسجد
لمعانيَّ الإنسانية
غضب الرب وقال:
" يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ "

وأجاب الملك النمرود
الوالغ في قدس الدم
الجالس فوق ضلوع فخَّرها التجويع :
" أنا خير منه. خلقتني من نار وخلقته من طين "
هطل الغضب الرباني
عاصفة من يحموم
تسفع وجه أبالسة العصر الكبريتي
" اخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين"
ازداد النمرود الأكبر
طغيانا
أطلق في الأرض عساكره
وزبانيتهْ
وأفاعيه
" النفاثات في العقد "
تكتب، تخطب، تنفث سماً غسقاً وَقِبا
وتعسكر ما بين رغيف الخبز
وحديد القضبان
وأنا في الزنزانة
أبكي ، أصرخ:
يا فرسان الإثم
يا نمرود الظلم
يا منتعلاً قلبـه
قبلني ربي
واستخلفني
من عاداني عادى الرب

مع الشيخ الأخضر

سمع صراخي درويش عارف
يحمل إبريقاً وعصا
يلبس ثوباً أخضر
يعبر درب الخوف
ناداني:
يا ممترض القلب كليل العين

أو لم تسمع صلصلة الأحرف
" لو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشيء ما يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك "
من كان الله لـه سلطانا
لم يخش من السلطان
من كل طواغيت الأرض
من أرباب ما عبدت زلفى لله
. . .
لحظة صمت دقت باب الزمن الموصد
. . .
ثم إلى صدره
مد يد القدرة
أخذ كتاباً، قال:
ـ اقرأ
ـ ماذا أقرأ ؟
وأمامي كلمات .. من غير حروف
وترانيم ضياء .. وصـروف
ـ هذا الزمن يعود
صوراً ومشاهد
ما فات .. وما هو آت
وكتاب الزمن المفتوح
يقرؤه الحكماء
انظر ذاك الجالس في ظل الحائط
يتبعه السفهاء
هذا " سيد المستضعفين "
أنصِت
أنصتُّ فأمطرني صوت يشرق بالدمع
" يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري "
امزج دمعك
بدموع " سيد السادات "
واحمل سيف الأمر
وردِّد :
" والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في

يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه"

قلب الشيخ الأخضر صفحة أخرى

ـ اقرأ

وقرأت سورة " **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** "

فرأيت أمي، الوفائية[1] الوفية، تحملني وأنا مريض على كتفيها وتلوب في الشوارع وليس معها ثمن دواء ورغيف.

ورأيتها وهي الوفائية الوفية، تحمل ثلاثة والحرب تلتهم أطراف العالم، تحملني على كتفها الأيمن، وتحمل كيس الحنطة الذي أرسله محسن مجهول على كتفها الأيسر، وتحمل في بطنها العالم الأكبر، وأخي يتبعها باكياً متعثراً، وهي تسعى إلى المطحنة.. فتجهض في الطريق.

ورأيتها وهي الوفائية الوفية تحمل الأحجار وتساعد أبي في بناء الدار، ثم تسهر معنا حتى منتصف الليل كي نكمل كتابة واجباتنا المدرسية على ضوء لمبة الكاز، وهي الأمية التي ما أجادت قراءة الأحرف ولكنها أجادت قراءة العالم على ضوء لمبة القلب.

ورأيتها تعد لي الطعام، تنتظر قدومي من الثكنة العسكرية، فتنزلق على أرض المطبخ، فتنكسر يدها، فتحملها مدلاّة وتتابع طهي الطعام، يشغلها انتظار رؤية الحبيب عن النحيب.

ورأيتها وهي الوفائية الوفية تنتظر مدفع القلعة معلناً، لتغمس كسر الخبز اليابسة في الماء وتفطر، لتوفر لي في العيد ثمن لباس جديد.

ورأيتها في أرض الحوش بدارنا العربية تعد قهوة الصباح وتنتظر أن أستيقظ من النوم وأنا فتى يافع، وقد وضعت لي متكأ بين أصص الفل والورد تحت ياسمينة الدار، ثم تقدم لي فنجان القهوة، وتغرق في بحران الصمت والصلاة وهي تتملى وجه الحبيب.. ورأيتني وشمس العمر في انكدار دميع العين أسفا لأني لم أغرق آنذاك في بحران " **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** "

ورأيتها حول منقل النار في قبو دارنا، والثلج قناديل في ظلمة ليلة قرّاء شاتية ، وهي تحكي لنا قصة جدها سيد الشهداء، وأنا ألثغ بكسر الحروف : ماما أنا ..جو.ـ عان، فتضمني وتقول " **قل هو الله أحد * الله الصمد** " تعلم يا بني أن الله وحده المقصود في طلب الحاجة، إن تعلمت تكن حراً، فإن كنت حراً كنت قوياً، ولا تكون قوياً إلا بالله، فإن صرت قوياً كنت أنت السلطان.

يا بني أنا الوفائية بنت الذي ناله سهم الطغاة على شاطئ الفرات قبل أن يبلل شفتيه بالماء لا أبسط يدي بالسؤال.

يا بني: **إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت**

---

1 () *آل الوفائي عائلة حلبية من الأشراف.*

فاستعن بالله

وانداح السعال في صدر والدي المصدور، وتكسرت باءات با .. با.. وانسفح من جراحاتها دم خضب وجه الثلج المسجى على زجاج النافذة ، ورأيته بعين العين يتشبث بقوائم الفرس الحزين لذلك الفارس الذي لم يبلل شفتيه من ماء الفرات حتى يهدأ السعال ، وسمعته وقد أنهت أمي كلامها يردد عبارات يباعد ما بين كلماتها نزق السعال:

ـ أرأيت الذي يكذب بالدين..

ويقطعه السعال ثم يردف :

"والله لا يؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم

ورأيت أمي ليلة طار طائرها، وأنا بعيد المغترب، تنازع الروح ثلاثة أيام وقد ابيضت عيناها من الحزن وهما تلوبان في برد الغرفة وظلمتها عن شيء.

قالت أختى : كفاها عذابا، أحضروا لها قميص ولدها الغائب وألقوه عليها.

أمسكت أمي بالقميص ، وراحت تشمه، انهمرت دموعها، تمتمت: أيها الفرس الحزين، احملني إلى جدي فقد اشتقت إليه.

كانت هذه آخر كلماتها، وعندما حملت الجارة الخبر إلى أبي وكان في أرض الحوش يصلح نعله المهترئ. طرح المطرقة والسندان ونهض.. ثم هوى على الأرض وقال: أيتها الوفائية الوفية .. لقد كسرت ظهري.

انكسر ظهر أبي بعد وفاة أمي، أصابه الهزال، واستيقظت شتاءات حلب المجنونة، أيام كان يعمل بنّاء في البلدية في عظامه المنخورة، وفجأة تقصفت ركبته وهوى على الأرض مقعدا سنوات في داري.

راتبي المسلول يبصق دماً، وأخي في بلاد النفط والعسل يشتار **"وتحبون المال حبا جمّا"**

وكان كلما رن الهاتف خزر والدي بعينيه متلهفاً أن يسمع صوت ابنه المتنفّط يحادثه أو يرسل إليه ثمن زجاجة دواء، لكنه كان في كل مرة يسبل جفنيه في حزن ويأس ويحشر عظامه النخرة تحت اللحاف ثم يدفن رأسه تحت الوسادة وينشج بصمت.

ذات يوم قال لي : إني رأيت في المنام أني أسير على رجليَّ خفيفاً معتدل القامة، ثم رنا إلى الهاتف وقال في حزن: إذا لم يتصل بي الليلة فلن أسمع صوته بعد الآن..

انتظر ثم انتظر .. ولم تفح من الهاتف رائحة النفط أو العسل.. تمتم بكلمات منتخرة مبللة بالدموع:

ـ لقد فات الأوان.

في اليوم التالي أدركته المنية عند الفجر وهو يزحف نحو صنبور الماء ليتوضأ، وكانت وصيته أن يدفن مع أمي، وبعد ليال رأيته في المنام يسير في حديقة هدباء خفيفاً معتدل القامة، وأمي تسعى نحوه فيلتقيان على ضفة كوثر تتحدر مياهه تحت شجرة وارفة الأنوار.. ويتعانقان، والرحمن يطل من شباك الرحمة ويرمقهما في حبور حنان.

ـ يا أبا محمد .. ها قد التقينا ثانية .. كم انتظرتك وأنت تسعى برجليك الكسيحتين نحوي.

ـ أيتها الوفائية الوفية لا تليق بك هذه الدموع، بين أن افترقنا والتقينا رفة هدب وانتباهة ذاكر.

ـ يا أبا محمد لن نجوع بعد اليوم أو نعرى.

ـ ولن نحزن.

وقصصت حكاية أمي للدرويش السالك درب الخوف
اللابس ثوباً أخضر

دمعت عيناه وقال:
بالأمس رأيتك في الحلم
كان المطر الأسود يهطل من جوف الأرض
وأمك في ذيل ملاءتها
تحميك من الريح الزرقاء
من البرد
كان عواء ذئاب العتمة
وعزيف أبالسة القهر
وعويل أفاعي الموت
تحاصر أمّاً ترفل بالأسماء
وهي تنادي:
يا رب الضعفاء.. يا .. يا
طرق الصوت الأبواب القدسية
وتكشفت الأستار لصوت وفائية
نهض الرب ونادى في غضب أهل القرية
فرداً .. فرداً

ـ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني.

ـ يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين.

ـ أما علمت أنه إستطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ! ؟

كيف يرجو مانعٌ معفرةً شفتاه في جراح الفقراء

ساكنُ إبليس في شريانه **ينشر الظلمة في تلك الدماء**

ومال إليَّ صاحبي وقال : يا بني الظلم ظلمات يوم القيامة، يبدأ باللقمة وينتهي بالنقمة

يا بني أما سمعت قول رب الناس:" **يا عبادي إني حرمت الظلم** "

على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا "

يا بني أين هؤلاء من قول ملك الناس " **ويطعمون الطعام على حبه**

مسكيناً ويتيماً وأسيرا "

يا بني لا تحزن فالحزن طهر، والطهر ولادة، والولادة قوة. والقوة

حق، والحق نور يلمع ما بين السيف والقلم.

يا ابن الوفائية كتب عليك أن تحمل أحزانك، وأحزان أمك، وأحزان

أمتك. والحزن والحق صنوان متلازمان، فدر مع الحق حيث دارت

الأحزان.

ـ يا مولانا الشيخ منذ أن ولدت وأنا أدور مع الأحزان ، أما آن لهذه الدائرة أن تكتمل ؟

قلب الشيخ العارف صفحة أخرى وقال: مازال على محيطها حكايات .. فاقرأ

حكاية الملك المغرور

قال الملك المغرور بالتاج والعرش والصولجان :

ـ يا لقمان إن عساكري قد أحلت الدمار في العالم. فجَّرتُ البحار بالعماء، وفطرتُ بالنظائر السماء، وسرطنتُ الأكباد والدماء، حتى دانت لي الأرض بما فيها من شعوب وأقاليم إلا هذا المربَّع، فحدثني عن رجال أربعتهم واحد وواحدهم أربعة.

قال لقمان الحكيم :

ـ أيها الملك، إن المربع أكمل الأشياء وأذكاها وأكثرها قوة ومنعة، هو بيت الحكمة، من أضلاعه تتشكل الحروف، ومن الحروف تنشأ الأكوان، منه تنشأ الدائرة وهو محيط بالدائرة، والدائرة تدور على من لا يدرك هذا المقال.

أيها الملك، في الزمن القديم كان هنالك أربعة رجال أقطاب جاؤوا من جهات العالم الأربع وتآلفوا شعوباً وقبائل وتعارفوا. وكان وراءهم ملك ظالم يأخذ كل روح طاهرة غصباً، وذات يوم سمع الملك بهم فأرسل زبانيته إلى بيت مقدسهم.

طرق الجلاد الباب وقال:
ـ من كان منكم المشرقي فليتبعني.
قال الأول :
ـ أنا هو المشرقي.
هرع الذي جاء من المغرب وقال :
ـ بل أنا هو المشرقي.
دفع الضلع الثالث صديقيه وقال :
ـ إنهما لا يقولان الحقيقة أنا هو المشرقي.
أمسك الجنوبي الجلاد من يده وقال :
ـ لا تكن غبياً، امض يا رجل أنا من تطلب.
قال الملك المغرور متعجباً:
ـ وأيهم المشرقي؟ لابد أن واحداً منهم يقول الحقيقـة والآخرون لا يصدقون.
قال لقمان :
ـ أيها الملك كل واحد منهم صادق، فالمربع يحتوي الجهات ولا تحتويه الجهات، من كان الله في قلبه لم يكن في قلبه مكان ولا زمان، وكانت الجهات الأربع جهة واحدة. ومن عاش الآخرة في دنياه لم تكن الدنيا العَبور الغَرور لديه إلا ذرة غبار واحدة في هذا الأزل المحيط. فأين موضع التاج والعرش والصولجان في هذه الذرة من الغبار ؟
أيها الملك أما التاج فإنه يسقط إذا مال الرأس ومن الذي لا يميل رأسه إذا هبت العاصفة؟
وأما العرش فإنه يتداعى يوم تزلزل الأرض زلزالها.
وأما الصولجان فتأكله الأرَضة كما أكلت منسأة سليمان، حتى إذا تهاوى كل تاج وعرش وصولجان، وانشطرت ذرة الغبار والأكوان، وجلجل صوت المنتصر للإنسان :
" كل من عليها فان "
فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ .. يا أيها الملك المغتر بالتاج والعرش والصولجان؟

حكاية بائع الملوك

ولما طغى جور الحكام، وتسلّم المماليك السلطان، أعلن العز بن عبد السلام أنه سيبيع الملوك في ساحة القاهرة. فثارت ثائرتهم وقالوا: أيبيعنا هذا الشيخ العارف ويشترينا كأننا نعال يحتذيها ونحن ملوك الأرض، ولدينا من السيوف والرماح والفؤوس ما نطيح به الرؤوس، وليس لديه غير دواة وقلم، وإبريق وعصا، وجبة من الصوف!؟ فمن لهذا المأفون يأتينا برأسه الملعون على طبق من نحاس؟

قال المدجج بالنياشين والأوسمة: يا سادة مدينة النحاس، أنا آتيكم برأسه قبل أن يطلع الفجر.

قال الشيخ لتلامذته: **والفجر وليال عشر**، إن هي إلا ليال عشر ثم يطلع الفجر، فقل لعاد الذين طغوا في البلاد متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

في عتمة الليل طرق عريف القوم الباب على العارف وسيفه المشهر ينزف موتاً، برز الشيخ.

ـ هل ستبيعنا حقا أيها الشيخ في ساحة القاهرة ؟

ـ أبيعكم غدا إن شاء الله.

ـ ولماذا تبيعنا ؟

ـ لأحرركم من ظلمات نفوسكم.

ـ ولمن تبيعنا أيها الشيخ ؟

ـ أبيعكم لشعبكم حتى لا تكونوا أسياداً عليه.

ـ وبماذا تقاوينا، بعصاك أم بلسانك ؟

ـ أقاويكم بالهيبة، إن للحق هيبة تجعل الجبل دكّاً.

ـ إذن أمسك طبق النحاس هذا بيديك حتى أفرغ من قطع رأسك وأضعه فيه.

أمسك العز طبق النحاس بيديه، وقبل أن يهوي المدجج بالسلاح بسيفه على رأس المدجج بالهيبة تجمدت الدماء في يده وسقط السيف في الطبق.

دفع الشيخ الطبق للعريف وقال: شلت يمينك، عد إلى قومك وقل لهم ألا ينسوا موعدنا غدا في ساحة القاهرة.

قبض الشيخ الأخضر على يدي بقوة وقال:

ـ يا بني من تسلح بالإيمان لم ترهبه سيوف العدوان

رب طاغ قد تناهى بغيه ... حكم الناس بسيف ودهب

أسرج الشر وأجرى بطشه ... فكبت أفراسه عند العصب

يا بنيَّ ملوك اليوم مماليك
فكن العز
واحرص أن تحضر المزاد
في ساحات المدن المِلحيَّة
واكتب بالحكمة والسيف :
لا شرقية ، لا غربية
حتى يولد فجر
من نزف جراح الشهداء
الإنسان المجبول بأنوار التقوى

في أزمان البلوى
يحمل سيف الحق على السياف
وغداً
طاغوت التجويع، القهر، الموت ..
" يؤخذ بالنواصي والأقدام
فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ "

معراج الباء

8

أنا النقطة تحت الباء
والباء بلا نقطة زورق بلا سَكّان
والباء بلا نقطة بيت بلا سُـكّان
والباء بلا نقطة كـون بلا ديّان
والباء بلا نقطة جسد لا روح فيه ، حتى إذا عشقته النقطة اهتز بالحياة، ونطق بالصفات.

هكذا قالت "حم" وفردت جناحيها في الأثير، وأردفت: هيا واركب رفرف الحرف المجنح بالبوارق إلى بيداء البواده التي يفنى فيها كل باد إذا بدا في القلب هوو .

ولابد قبل هذا أن تعبر باب الأبواب لتكون مؤهلاً للاتصال بالجناب، وأن تخلع عنك عباءة القصدير، فإنك لا تستطيع أن تطير وعلى كتفيك أحدٌ وثبير . فإذا ارتصت النواة بالنواة أصبحتَ نقطة في مثاني عاشق، تعرج إلى المعشوق في وقت ليس لـه طرفان ، وعلى بحر ليس لـه شطآن.

ـ أخشى أن يدرك القوم غيابي فيقيموا جنازتي ويكفنوني بالدموع.

ـ تترك بَدَلك[1] فيقوم مقامك، حيّاً بحياتك، ظاهراً بأعمالك.

ـ"حم" يا طائر القلب المرنِّق في الضلوع، ما الذي حملك على أن تفردي لي جناحيك في رحلة إلى العالم المشهود، ما يقطعها المرء إلا بعد النقلة الأبدية، وأنا مريض بالقلب أخشى البوادِه؟

فتحت "حم" باب القفص وأطلقت بلبل الدار ثم بسطت راحتيها أمام عيني ، فرأيت الدنيا والآخرة ، والجنة والنار، وبياض الوجود وسواد الغيب، ورأيتني بينهما وأنا في مركز الأضداد همزة بيضاء حائرة بين حروف العماء .

---

1 () *من سافر ترك جسداً على صورته يحيا ويعمل مثل الأصل المسافر . وهذه مخصوصة بسبعة في الأرض هم البدلاء.*

قالت "حم" : قرأت حكاية أمك الوفائية وأبيك الكسيح، وما عانيت وما عانى أخوتك الأربعون من الجوع والقهر والسجون، فرأيت أن أسرّي عنك الهموم بارتياد عوالم النور والضباب، مَن وَلجها انقطع، ومن قطعها جَهِل ، فهي سؤال أبدي لا يجد لـه أحد جواباً.

حلقت بي "حم" في أجواز الفضاء، فخرجت من العالم الصغير إلى العالم الكبير. زرت عوالم لا يحيط بها وصف، ولا يحدها مكان أو زمان، ولا تبصرها عينان.

رأيت الأنوار الهابطة إلى الغواسق, ورأيت الأنوار الصاعدة إلى الجواسق. ورأيت النور اللذيذ الشارق، و فيَّ لـه مع كل نبض ومض. وسمعت حنينه إلى النور القيوم، وبكاءه على من فارق وهو على التخوم.

رجوت "حم" أن توقف خفق جناحيها وتبسطهما لسابحات السؤال:

ـ أما ترين هذه الأنوار الشارقة في الإنسان وحنينها وبكاءها؟ أ هكذا يفعل العشق بصاحبه؟

قالت "حم":

ـ لولا الأنوار الشارقة لكفّت الأفلاك عن السباحة والتسبيح، والبحار عن السجوِّ والموجان، والأنهار عن النبغ والجريان، والأرض عن الولادة والخصوبة.

لولا الأنوار الشارقة لانعدمت المحبة وأصاب الكون الفساد. فإذا انعدم العشق اختل نظام الكون، وارتطمت النجوم، وأنساحت الجبال، وتفجرت البحار، وانشق القمر، وبسط البوّاق جناحيه ما بين السماء والأرض موريا ببوقه ضابحات القيامة.

والعشق أقصى درجات المحبة، فيه غيبة وذهول وحركة في القلب لا تعرف السكون. ولا يصل المرء إلى هذا المقام إلا إذا عرف الغرام منتشياً بخمرة المحبة، وخلع العذار مفتتناً بالمحبوب عن السِّوى، وجذبه الوله فتحير، ودهش فذهل، وفني فرأى.

بيداء البواده

كنت أسمع حفيف أجنحة الملائك في غدوها ورواحها، وتراتيل روح الإلقاء جبريل وهو يردد التنزيل، وغناء شجياً يصدر من البيت المعمور والقبة الوقور، وتسابيح تتهاطل من غمائم نورانية، ومزامير قدسية ترقص على لحونها الأسماء. وشدواً سكريَّ المذاق يتماطر من بلابل السدرة.

وكنت أبصر أطياراً خضراً على أفنان من عقيق على مقام عرفات، وهي ترف بأجنحتها، مغردة تتنسم روائح الجنان.

وأبصر أطياراً سوداً في خرابات مظلمة، صامتةً حزينة مهيضة الجناح تلفحها لوافح النار.

وأبصر أطياراً ملونة تعاجمت ألسنتها، واشتجرت لحونها، تنتظر فصل القول: أيها أجمل غناء؟ وقد تعدد المغنون، وكثرت اللحون، وتناصَّت القصائد، ونَصبت التراجم، والمعشوق واحد ينتهي إليه الغناء بلغة ليست كاللغات، حروفها الأنوار الشارقة، لا تحتاج إلى ترجمان.

وأبصر سرادقات من لؤلؤ ومرجان، لا يكذِّب بآلائها إنسان، مستديرة كهاء الديّان، تعبر من نوافذها أطيار تخلع أجنحتها، وتنفض ريشها، وتتشكل في صور الكمالات الشارقة فيها، من غير أن تنزع عنها نحاسات عبوديتها. وهي في مركز السرادقات، وهاء الجلال تدور وتدور. والدائرة هي الحق في جوفها الخلق، وهي الخلق في جوفها الحق، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يتحاورون ويتهامسون، وهم في شوق شقَّقت شرانقَه فراشات ربيع اليوم الموعودِ يتساءلون: متى القيامة؟

مسحت " حم " بكفها الحريرية على عيني وقالت: أما وقد أبصرت بالبواصر فانظر الآن بالنواظر.

ونظرت فرأيت سهولاً تنبسط أمامي كالأسفار، وجبالا شامخات، وأنهاراً جاريات، وبحاراً تمخرها الجاريات. وجزائر تهرج فيها الأنوار.

ونظرت فرأيت مدناً عامرة بالناس، وقرى تنتشر في حقول تموج بالسنابل، وقلاعاً وقصوراً وأكواخاً لا يغلق فيها باب على طارق.

ونظرت فرأيت طرقات تسلكها السابلة، وقوافل تنطلق من المدائن إلى الأقطار، وأخلاطاً من الخلق يجوسون خلال الديار، يتبادلون التحيات، ووجوههم تفيض بالبسمات.

ونظرت فرأيت المنشدين والعازفين في الأحياء التي تهاطلت من شرفات بيوتها عرائش الورد والياسمين، وهم يطوفون بأعوادهم وسناطيرهم وبارواح القصب ، يعزفون وينشدون نغمات رابعية وفارضية متباينات آناء الليل وأطراف النهار، وأجواق الحمائم والطيور ترجِّع اللحون وتخصف بأجنحتها أحرف الهواء.

ونظرت فرأيت أسواقاً عامرة مسقوفة وأخرى مكشوفة، يزدحم فيها الشارون والبائعون، ولا نقود إلا الكلم الطيب والصلوات.

ونظرت فرأيت أهل الصنائع في صنائعهم يعملون، والفلاحون يزرعون ويحصدون والثاقفون يقرؤون ويتحاورون، وربات البيوت يرتبن الغرفات ويثرثرن ضاحكات.

ونظرت فرأيت المساجد يرتفع من منائرها الأذان، والكنائس يعلو في جنباتها قرع النواقيس. والمعابد مختلفاً أشكالها وألوانها يحتشد فيها المصلون.

ونظرت فلم أر ملكاً أو وزيراً أو أميراً، ولا قائداً أو شرطياً أو مديراً. وكانت الحياة تسير بالحاكمية العشقية كزورق حالم

في بحيرة سحرية.

وبسطت كفيَّ لأقبض حفنة من التراب فإذا بي لا أقبض إلا على هواء.

ومددت يدي إلى الجبل أتلمس الصخور فإذا بها تغوص في الفضـاء.

وغمست أصابعي في الماء فما أدركها بلَلُ الماء.

نظرت إلى رفيقة دربي " حم " دهشاً متحيراً..!

ـ أيُّ عالم هذا أراه ولا أقبض عليه؟

قالت " حم " متبسمة من جهلي:

ـ هذا عالم الشهود ، ومتنظَّر الموعود، كل ما فيه روح، حتى الجبال والأنهار والمدائن ما هي إلا أرواح، وكل يسير على قانون الطبيعة الروحانية.

ـ أيَّ حلم رائع أرى؟ هذا الذي طالما حلمت به البشرية يا أماه.

ـ بل هي اليقظة. الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ـ ضع يا ولدي هذه العباءة على كتفيك واتبعني.

وضعت عباءة المستريح على كتفيّ، فارتقت " حم " بي سلماً من صوت وبرق وأنا أتبعها حتى بلغت أجوازاً من البوادر ما ترقى إليها سوى الخواطر، ثم فتحت لي شبّاكاً في الأثير مطلاً على الأزمان، فأطللت فرأيت..

كرة من نار ونور ، وضياء وديجور، ويابسة وماء، تسبح في الفضاء.

رأيت فيها الجمال والقبح متجاورين، والموت والحياة متعانقين، والليل والنهار متلاحقين.

ورأيت مدناً وعواصم تسقط وتحترق ، وفراعنتها في الجحور تختبئ، فتنتزعهم من جحورهم ملاقط الجرذان.

ورأيت ثيراناً لها قرون تناطح السحاب، ما تلبث أن تتهاوى نحو مَصارعها فتندس في التراب.

ورأيت قصوراً تصير قبوراً تتزاحم فيها الأجساد والأضداد، تنتظر الصيحة.

ورأيت في القبور أجساداً مظلمة تعصف بها أرضة الديجور فتأكلها ثم تسلحها حَمَأً مسنوناً، ويتعالى الحمأ المسنون فيصير قصوراً بعمائرها وملوكها وأمرائها وعسسها وعساكرها وكنّازها، ثم يغشاها ليل الدمار والبِلى فتصبح أثراً بعد عين، لا تراه إلا عين العين.

ورأيت في القبور أجساداً شَفّاها الجوع والحبس الطويل، وشَفَاها العشق والشوق، تنسمها نسمات رحمانية فتصير ذراتٍ من النور تتوامض في حقول الصباح.

ونظرتُني فرأيتُني ذرة نور تتذرذر على شفاه قطرة ندى

سكرى بالتسبيح على غصن من سدرة المنتهى قد دنا فتدلّى.

ورأيت أزمنةً تدور، وأزمنةً تغور. وشعوباً تولد وأخرى تبيد، ودهاقنة تصول ثم تهوي وتميل، ودولا تطغى ثم تشيخ وتدول.

ورأيت عشاقاً على الشرفات يذيعون السكر المذاب بالشفاه والعيون.

ورأيت أطفالاً يدورون في الحارات يلعبون ويهزجون، وأمهاتهم يطللن من النوافذ يطيِّرن لهم المعوِّذتين.

ورأيت عمّالاً على المراقي يرفعون العمائر ولا مرقى لهم، وباعة في الطرقات يتجولون يرفعون عقائرهم بالنداء ولا صوت لهم، وكتّاباً بالأقلام يسطرون فتنثر الريح ما يكتبون. ونساء يلدن أطفالاً من حطب، والحياة طير يزجره عتلّ زنيم مغتصب.

ورأيت المسيح يلاحق الدجال ويرميه بالآيات حتى يجري النهر ويفيض البحر الميت بدمه، فيعود الخصب إلى الأرض، ويحيا الناس في سكينة وسلام.

ورأيت الخصام يغتصب السلام ، ويسود الهرج، وتكثر الزلازل، وترتفع أعمدة الدخان، وتتلبس الجن في الإنسان، وتطلع الشمس من بين قرون الشيطان، ويُرفع القرآن ، فيختل نظام الأكوان.

ورأيت .. ورأيت..

..حتى رأيت طائفاً يطوف على كرة النور والنار فيجعلها هشيماً مسجوراً، وكوكباً ميتاً مقبوراً.

أدرك بليل الدار ما بي من شقاء وأنا المسافر في الاعتبار بين العدوة الدنيا والعدوة القصوى، فناداني مغنِّياً بصوته الحزين.

أيها السالك
أغلق
كوَة الأزمانِ
وانهض
عد من الوهم إلى نور الحقيقة
هاهم قد أطفؤوا الطاقة في الأرضِ
وقد مات المؤذِّن
غلّقوا الدار على الإنسانِ
طغياناً وتيها
أشعلوا النيران فيها
واستباحوا ساكنيها
تركوا القرية في الفوضى
غريقة

عدت إلى السفين حزيناً يائساً. خلعت عباءة البرزخ،

وشددت الرحال إلى السفر من جديد.

معراج العين

9

مَنْ هذا المسافر
من عين الفجر إلى غين الغروب
على طوف الخوف والشوق
يبحر متخففاً من أحماله
يصطاد بصنارتين: جوع وعطش
أسماكاً مقدسة
لها لون العرس وطعم التقوى؟
أيها المبحر الغريب إلى جزائر غربية
لم تطلع عليها شمس
ولم يشتملها ليل ولا نهار
في سفينة لم يشترك في صنعها صانـع
ولم يخالطها خشب أو حديـد
وإنما صنعها مهندس الأرواح
تمهل قليلا أمام شواطئ الآخرين
وتزوَّد بسكر المحبة

أيها المبحر..
ومَنْ غيري يجدِّف ويجازف
على طوف ألواحه مشدودة بأمراس المواجد
أي سرٍّ يدفعك إلى ركوب المخاطر
من أجل هذا الحب
وأنت الذي لم تر وجه الحبيب أبداً؟

تستيقظ الأسماك
يستيقظ الإنس

تستيقظ الملائكة
يستيقظ الجن
على صوت المسحِّر
وهو يقرع بطبلته السماوية في عتمة الليل
يوقظ النجوم للسحور منشداً
إن الطريق إلى ليلاك مهلكة لكنها إن تك المجنون ميمونة
أما أنا
فأستيقظ على نبضات سبّوح .. سبّوح
من وجهك القدسي

يسافر الصائمون
في سفائن الإمساك
المبحرة إلى الجنة
أما أنا
فالجنة هي فلكي ومعراجي
إلى وجهك الأنور

مباركٌ رمضانُ وجهِك الجميل
من تنفُّس الضياء
إلى شهيق الدماء
في أبهر اللقــاء

مرايا الفرح الشارق

عندما رجعت من رحلتي البرزخية وجدت "حم" في إنتظاري وهي تجلس على حافة عين القدس تحف بها في أقواسٍ سبع صبايا حافلات الوجوه بالأنوار العلوية، وقد ارتدين ثياباً شفيفة من أرواح عشاقهن، وألقين على أكتافهن أوشحة ملونة بنبض الفرح الشارق، وفي أيديهن مناديل بيض قد طرزت عليها حفيف أجنحة الملائكة.

بهر جمالهن عينيَّ حتى أحسست بأنني أدور في فَلَك سنة خفيفة، حول قمر انعدمت مادته ولم يبق منه إلاّ البهاء.

كانت الفتيات الحافلات الوجوه بالأنوار الصاعدة والهابطة يرقصن في دائرة لا يحيطها محيط. مركزها حم، وأقطارها مرايا، وعلى أقواسها السبع التي لا تنتهي أمداؤها تناكبت عيون العالمين في السماوات والأرضين ممن ولد ومن لم يولد. وكن يرتلن غناءهن ترتيلاً تتراتل لسماعه سرائر النفوس السادرة

في غيِّها السافر النبيل، وأنا في تلك الدهشة أسرد النظر بين المركز والأقواس فلا أرى غير وجه "حم" الأم والأخت والحبيبة؛ فعجبت لواحد في سبعة، وسبعة في واحد. ورأيت أن أعرج إليهن عبر جدول الزمن الذي لا يرجع إلى وراء لغير جدائل العرافين، لأعرف قصتهن وأكلمهن علني أقطف من بستانهن كرمة لم تعتق في جرار الجارية.

قلت لـ "حم": أيتها الأم والأخت والحبيبة، لقد تقوست روحي في هذه الأقواس، وفنيت نفسي في هذا الجمال، ولا بد لهؤلاء اللائي انتهين في جلالك من مبتدأ. فلكل آخر أول، ولكل منتهى مبتدأ، ومبتدأ العشق المعرفة. وما ركبت هذا المعراج منذ أن صنعتِ لي أرغفة الماء إلا لأتزوَّد بماء المعرفة فأصِل إلى عالم الكمال وسكَّر العشق المُذاع. فهلاّ دعوتني إلى مأدبة وجوهك السبعة، لأطعم ثمار طوبى، وأفلق البذرة التي كان منها هذا الجمال؟

فحصت "حم" بصولجان الصمت ثرى كلماتي المصوِّحة وقالت: إنك إن عرجت إليهن صرت نبضة منهن ومني تتأهب للسفر الطويل، وليس لك بعدها أن ترجع إلى غسق الجنس الأول. وإنك كي ترقى إليهن وإليَّ لابد أن تركب معراج ياء العالمين لتصل إلى نون التكوين.

قلت: لقد ركبت هذه الطريق الصعبة، وجزت البحار والأنهار، والجبال والوديان، وفارقت الأهل والخلان، ولقيت الأحبة في جزائر الدموع والكلام، وتَذرذرَت روحي مع الذي استوى في قبره، وسرى في دمي ما همستِ في قلبي، وسمعت مكاشفات صاحب الغار وما تكلم صاحب السِّراج، وأرسيتُ في ميناء لا تحسبن وزرت السوق السماوية، ورتلت سورة الإنسان على ضفاف رأيت، واطلعت على العالم المشهود..

أيتها الأم والأخت والحبيبة، وهل فعلت كل ذلك، وأنت دليلي ورفيقة دربي تعلمين ما لقيت وما عانيت، إلاّ لأبلغ هذا المقام فيقذفني سهم المركز وقوس الجمال إلى نون الجبين فأغدو نبضة نور من وجه محبوبي نور الأنوار الذي تضيء حروفه التي لا تعد، وكلماته التي لا تنفد، وقرآنه الذي لا تنقطع عن تلاوته الأكوان، دربَ عودتي؟

واضيعتاه.. أنا إن لم أفعل ذلك سأبقى غريباً ذليلاً تائهاً مضيَّعاً.. على قارعة طريق!

معراج الياء

10

أذنت لي حم بالعبور إلى كوثر الجمال وهي تخشى عليَّ من اللُّجة، وأنا الذي لم أمارس العوم في الأنوار يدفعني البحث عن المعرفة إلى ركوب الأخطار.

قوس ميمونة السوداء

اتجهت إلى الأولى فانبسطت أمامي الكوفة وبساتينها، والفرات وشاطئاه، فجزتها إلى الجَبّان فرأيت فتاة ترعى غنيمات، قائمة تصلي، وبين يديها عكاز لها، وعليها جبة صوف كتب عليها: لاتباع ولا تشترى. ونظرت فرأيت الذئاب مع أغنامها لاهية، فلا الذئاب تأكل الأغنام ولا الأغنام تخاف الذئاب.

ولما رأتني أوجزت في صلاتها وسلمت ثم قالت: يا ابن حم أنا ميمونة السوداء، يظنني أهل الكوفة مجنونة لأنهم لا يدرون ما يفعل العشق بصاحبه.

قلت : رحمك الله وما يعلمك أنني ابن "حم"

قالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر اختلف؟

قلت : يا طاهرة الجيب، عظيني.

قالت : يا عجبا لسالك في المحبة يوعظ! ومن ميمونة حتى تعظ!؟

يا واعظاً قام لاحتساب ... يزجر قوماً عن الذنوب

تنهى وأنت السقيم حقاً ... هذا من المنكَر العجيب

غيَّك أو تبت من قريب ... لو كنت أصلحت قبل هذا

موقع صدقٍ من القلوب كان لما قلت : يا حبيبي

وأنت في النهي كالمريب تنهى عن الغِيِّ والتمادي

يا ابن "حم" إن كنت تريد اجتياز الأسوار فتحرر من الإسار، وإن كنت باحثاً عن المعرفة فاركب براق العقل واسلك طريق العرفان، وكي تصل من غير أن تضل لابد وأن تحمل معك مصباح الوجود، ولا تبحث عن هذا المصباح في سوق المصابيح لأنه في قلبك موجود، زيته العشق ونوره الهدى. واعلم أنه ما من عبد أعطاه الله من متاع الفانية شيئا فاستزاد وابتغى إليه ثانيا إلا سلبه الله حب الخلوة معه، وبدَّله بَعد القرب البُعد وبَعد الأنس الوحشة.

قلت: يا ميمونة لقد احلولى السواد في عينيَّ حتى وددت لو أن الشمس ما طلعت على الناس إلا بهذا اللون الشعشعاني الأسر جماله، فحدثيني يرحمك الله عن الغنم التي لا تفزع من الذئاب. والذئاب التي لا تأكل الغنم فإني أرى عجباً.

نادت ميمونة السوداء ذئباً وحملاً وقامت بينهما تصلي، باسقة القوام ممتدة الأفياء كشجرة الحياة ، ثم التفتت إليَّ وقالت: أيها المغتر بحكمته، إليك عني، إنك لسقيم الإدراك، وإنت مازلت في أول الطريق. لقد أصلحتُ ما بيني وبين سيدي فأصلح ما بين الذئاب والغنم..!

قوس بردة الصريمية

ثم إني قصدت الثانية فسعت إليَّ البصرة بشطها ونخلها وبساتينها وبحرها، وقد تزاحمت في سمائها الغيوم الدكن، فرأيت الملوك في قصورها يرتدون الكبر ويجررون أذياله. ورأيت الزنج في أسباخها يزرعون وهم يتمنطقون الجوع وأقدامهم تغوص في وحل الفاقة. ثم هبط جند الليل في دروب البصرة، وسكنت الحركات. وفجأة أضاء البرق وتهزّم الرعد وصوَّتت الصواعق، وسمعت صرخة لمّا يزل يعقبها صياح ونحيب. فقلت: صاعقة صعقت قلباً فأحرقته، وتبعتُ الصيحة فإذا أنا بفتاة كبردة الأنوار قد غشيت، وقد ذهب بصرها من كثرة البكاء. فانتظرتُ حتى أفاقت من غشيتها، ثم رأيتها تضع يدها على قلبها المحترق والدخان يتصاعد من عينيها الباكيتين وتنادي بصوت حزين: حبيباه.ـ لقد هدأت العيون، وغارت النجوم، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك يا حبيبي، أتُراك تعذبني و حبك في قلبي..؟ لا تفعل يا حبيباه .. لقد ذهب بصري في الشوق إليك والتضرع في القربى منك فامنحني ذهب محبتك وقلادة رضوانك.

ثم التفتت نحوي وقالت: تسأل عني؟ أنا بردة الصريمية، أناجي حبيبي كل ليلة كي يخلع عليَّ بردته فلا أعرف القَرَّ والحر

، وربما سمعت صوته فأرى مُلْك بني مروان قد حُوي لي فلا أحفِل، فصوته المُلك، ومُلكه القلب، والقلب هو المَعرفة بالحبيب.

قلت وقد رأيت الفجر في عينيها ينهض من رقاده ويخلع على نخيل البصرة بُرود النور : يا بردة ها قد طلع الصباح على البسيطة فكيف أصبحتِ وأصبح الناس؟

راحت بردة تخلع من معصميها أساور العمر وتلقيها في دجلة واحدة تلو أخرى، وقالت: أصبحنا أضيافاً منتجعين بأرض غربة ننتظر إجابة الداعي إذا دعا.. وقد دعا.

قوس جوهرة البراثيّة

ثم إني ركبت السفينة متجهاً من قوس البصرة إلى مدينة السلام والنوتيُّ ينادي: لا يركب فلكنا من لا يعرف الغوص فالبحر مليء بالأسرار والأخطار.

أبحرت طفلة النهر في هدوٍّ، والأمواج تهدهدها على صدرها وتناغيها، والأطيار البيض والخضر تصحبنا أسراباً أسراباً وتمطرنا مناقيرها باللحون، حتى إذا جزنا منائر الفلق ودخلنا مغاور الغسق وقطعنا الأبلّة عفْرَت اليم واشتملتنا العاصفة واضطربت السفينة وغشّانا موج كالظلل وصاح النوتي: لابد أن تقدموا القربان لسيد البحر وإلا هلكتم. إن كنتم تريدون النجاة فتخففوا وألقوا أحمالكم في دجلة. فألقينا الأحمال حتى لم يبق لنا إلا ما يستر عرينا، فتقشعت الغيوم، وطابت الريح، ولاحت لنا عن بُعد منائر بغداد وقبابها، حتى إذا جزنا الكرخ والرصافة إلى براثا أشار إليَّ النوتي أن قد وصلت فاهبط من الفلك بسلام واقصد جوهرة الأنام فإنها في انتظارك. فعجبت من نوتي أمّيٍّ يصيد اللؤلؤ في مكنون البحار من قبل أن يباشر العوم والغوص.

نزلت إلى الشاطئ فإذا أنا بكوخ وامرأة قائمة فيه توقظ زوجها وتقول:

- يا أبا شعيب، كاروان رفت.. كاروان رفت.

ثم خاطبتني من غير أن تلتفت: يا أخا "حمّ" أراك لم تفهم قولي، لو أنك عشقت لنطقت بكل الألسن وعلمت منطق الطير ووشوشة الحشائش ونجوى النجوم وهمس الحجر.

قلت: أنت هي إذن .. جوهرة البراثية.

قالت جوهرة: كنت جارية لأحد الملوك أعيش حياة القصور وعليَّ من الثياب والحلي ما تحسدني عليه النساء، ثم إني رأيت في المنام أن رَجلاً في كوخ على دجلة يدعوني إليه فعشقته وصرت أسيرته وجفوت سيدي وكان حكيماً حليماً كريماً، ولما أدرك الملك ما بي قال: من عشِق عُتِق. ثم أعتقني وأطلقني وجهزني بما يحتاجه المسافر. وانطلقت إلى شاطئ النهر أرود الأكواخ حتى انتهيت إلى هذا الكوخ فلقيت الذي رأيته في المنام فقال:

- قد صدَّقتِ الرؤيا يا جوهرة.
- يا سيدي إني أريد أن أكون خادمتك.
- ما أنا إلا مملوك فإن أردت أن تكوني حبيباً لملك الناس فغيري هيئتك، واخلعي عنك أثقال الحلي والثياب الملكية، وتجردي عما أنت فيه حتى تصلحي لما أردت.

وأحسست بأثقال ما عليّ، وأني أنوء بحمل هذه الأحمال، وأن ركبتاي تتقصفان، فتجردت عن كل ما أملك، ولبست ما أنا عليه الآن من عري وثياب ثم حضرته وكان يجلس على جِلّة فتبسم وقال:

- يا لروعة ما أرى! لا تحجبي بعد اليوم عن عيوني هذا الجمال يا جوهرة.

ثم سجد وسجدت فسمعت الأرض تقول لي:

- تجعلين بيني وبينك حجاباً يا جوهرة، وأنت مني، خرجتِ من رحمي، وتعودين إليه، ثم تبعثين منه؟

ونهضت من سجدتي وقلت:

- هذه الجِلّة تحجبنا عن أمِّنا الأرض يا أبا شعيب. انطلق وتصدق بها، وخَل الثلاثة في واحد لتسير بهم القافلة إلى الأحد.
- يا جوهرة وصلتِ اليوم فسبقتِني!
- وسبقنا آخرون.. هيا يا حبيبي.ـ كروان رفت.. كروان رفت.

قلت: يا جوهرة مازلت لا أنطق بكل الألسن ولم أعلَّم منطقَ الطير ووشوشةَ الحشائش ونجوى النجوم وهمسَ الحجر، ولا أعرف معنى كروان رفت.

أجابت جوهرة الناس وعيناها جاحظتان إلى السماء: سارت القافلة.. سارت القافلة. يا أخا "حم" ما مقامك هنا؟ أنت في أول الطريق فانطلق، وغدٌّ المسير فلقد سارت القافلة.

قوس مريم العابدة

خرجت من القوس الثالثة إلى القوس الرابعة في ليلة ظلماء ذات برد وريح، وكان المطر قد اتصل ليالِيَ، فوكفت السقوف وتشققت الجدران وفاضت الجداول وتأفعى السيل في طرقات القرية النائم أهلها، وكان معي شويٌّ لم تمسسه نار، ونقود لم يضربها سلطان. قلت: أقسمها في جيرة الحرم. فإذا أنا بامرأة قد خرجت وهي تقول: يا رفيق ارفق بنا.

ورفعت مصباحاً في زجاجة حملته في يدي لأتبين وجهها فإذا هي مريم العابدة، وكانت أمّاً لأيتام ترعاهم.

قلت لها: ما لكِ يا مريم يرحمك الله ؟

قالت: تلصص السيل إلى بيتي، ووكف سقف البيت، وانسرب المطر إلى الفرش، وأنا أنقل أطفالي من موضع إلى

موضع .. يا رفيق ارفق بنا.

قلت: خذي هذا الشواء وهذه الدنانير وانتفعي بها.

وهنا خرجت عليَّ من البيت صبية أضاء وجهها ظلمة الليل، عليها مِدرعة من صوف تستبين خروقها، وقالت:

- يا أمّاه، ما هذا الذي فعلته، دنانير وشواء!؟ قد علِمنا، أننا لما شكونا مولانا، أنه سيبعث إلينا بالدنيا ليطردنا من بابه.

ثم ألصقت الصبية خدها بالتراب وقالت: أمّا أنا، وعزتك وجلالك، لا زايلتُ بابك وإن طردتني.

قالت مريم: طاب الغرس، وسبقتنا الصبية. أعد بضاعتك إليك فإنا قد رفعنا حوائجنا إلى من يقبل الودائع ولا يبخس العاملين.

ودَعَتني إلى الدخول فدخلت المحراب ورأيت البيت قد اتسع واتسع فهو حجرات وأبواب وإيوان وشرفات. وإذا بفُرشٍ ممدودة ونمارق مصفوفة وأرائك منضودة، ووسائد زخرفت بتصاوير الفردوس، وعلى الأرض مدت بُسُط فَرَغ صُنّاع تبريز لتوّهم من صنعها، ومن السقف تدلت قناديل مشعلةٌ ونجوم فكأنها سماء فوقها سماء. ورأيت مائدة عليها من الحلوى والطعام ما لم أر مثله إلا في المنام.

قلت وقد بلغ مني العجب مما رأيت: يا مريم أ بُدِّلت الأرضُ غير الأرض والسماء، أنّى لك هذا..!؟

قالت مريم: هو من عند الله.

قوس أم محمد

ـ يا أم محمد أوحى الله تعالى إلي بعض أنبيائه: **أنزلْتُ بعبدي بلائي فدعاني فماطلته بالإجابة فشكاني فقلت: عبدي كيف أرحمك من شيء به أرحمك".**

يا أم محمد قال تعالى: "**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**".

يا أم محمد، أيتها العابدة، الصبر صبران: صبر العابدين وصبر المحبين، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً. وقال من كرَّم الله وجهه: **الصبر مطية لا تكبو**.

يا أم محمد أيتها العاشقة لا يصح العشق إلا إذا لم يُطْلِع العاشقُ هواه على صبره، ويخفيه عن دمعته لئلا تجري من غير أن يدري. فهو سكون الخاطر مع البلاء مع وجدان أثقال البلاء.

صبرت ولم أطلع هواك على صبري وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر

مخافة أن يشكو ضميري صبابتي إلى أدمعـتي سـرا فتجري ولا أدري

هكذا قال " سريٌّ "[1] وكنت أراقب المشهد وأنا في القوس الخامسة وكان "جنيد" حاضراً فقال:

- المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن، وهجران الخلق في جنب الله شديد، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشد، والصبر أن تجوع المرارة من غير تعبيس، وهو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

- الصبر هو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

هكذا قال " ذو النون" الذي لحق بالمقام وأردف: الصبر المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية، وله أحسن الجزاء لقوله تعالى: **"ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"**. وصبر المحبين أشدُّ من صبر الزاهدين واعجباً كيف يصبرون وأنشدوا:

الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عليـك فإنه لا يجمل

قالت أم محمد: ما لكم تحدثونني عن الصبر وتحملونه لي وهو وشاحي الجميل أتجمل به قبل أن يخلق أيوب؟

ثم التفتت إلى أستاذها " سريٍّ " وكانت تلميذة لـه تتلقى عنه علوم العرفان وقالت: يا أستاذي كلمتني في علم الصبر وفي علم الرضى، فهل حدث ما خلتموه لي مكروها ولم أدر به؟

قال سريّ: أنت ترسلين ابنك إلى معلم الكَتاب.

قالت: أجلـ

قال: وقد أرسله المعلم إلى الرَّحى فنزل الصبي في الماء فغرق.

قالت مستنكرة: ابني غرق؟

قال: نعم.

يا أم محمد قوله تعالى: "واصبر" أمْرٌ بالعبادة. وقوله تعالى:" وما صبرك إلا بالله" عبودية.

يا أم محمد فمن ترقّى من درجة "لك" إلى درجة "بك" فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية. قال صلى الله عليه وسلم بك أحيا وبك أموت.

تبسمت أم محمد وقالت وهي مطمئنة: كفّوا عن أحزانكم ومواساتكم لي، إن ربي ما فعل هذا. قوموا بنا إلى النهر.

ورأيتهم يذهبون إلى النهر ويتبعهم خلق كثير يريدون أن يشاركوا المرأة أحزانها على ولدها. وتوقف الجمع أمام النهر.

---

[1] () *أبو الحسن سري بن المغلس السقطي. خال الجنيد وتلميذ معروف الكرخي . توفي سنة 257هـ*

وكفت الرحى عن الدوران مستطلعة ما يجري.

قالت أم محمد: أين غرق؟

أجاب شهود شاهدوا الحادثة بأعينهم: ها هنا سقط في النهر وغرق.. رحمة الله عليه. واخضلت بالدمع أعينهم.

اقتربت أم محمد من حافة النهر ونادت: يا ولدي محمد.

أجابها صوت من داخل الماء: لبيك يا أماه.

وبرز محمد من تحت الماء وهو يحمل على رأسه جرة صغيرة.

سألت الأم ابنها: ما كنت تفعل تحت الماء يا محمد؟

قال محمد: يا أماه..أردت أن أملأها لك ماء من عين النبع فهو شفاء.

وسألت أم محمد: ولماذا تأخرت تحت الماء حتى هلعت لفقدك القلوب وسبَّبتَ للناس الأحزان.

أجاب محمد: أدركني النوم عند عين النبع فنمت ، ثم أيقظني صوتك يا أماه.

نظرت المرأة إلى من حولها معتذرة، ثم نزلت إلى الماء وأخذت بيد ابنها ومضت إلى المنزل.

التفت " سريٌّ " إلى " جنيد " وقال: أي شيء هذا؟

قال جنيد: إن المرأة كانت مراعية لما لِلّه عليها، وحُكْمُ من كان مراعياً لما لِلّه عليه ألاّ تحدث حادثة حتى يعلم بها. ولمّا لم تعلم المرأة بهذه الحادثة فقد أنكرَتْها وقالت: إن ربي ما فعل هذا.

قوس شعوانة

انطلقت إلى القوس السادسة وقد سمعت وَدْقَ بكاء يثقِّب خباء الليل. قلت في نفسي: ما أرى الخوف إلا قد أحرق قلبا. وجبذني الصوت بقوة حتى ما عادت قدماي تلامسان الأرض فأنا أسير في الهواء بقوة غامضة قاهرة، حتى أضاءت لي منائر الأبلّة، وإذا أنا أمام منزل رثِّ الهيئة أثر الجدب عليه بيِّن.

وجاءني من داخل المنزل صوت يللته دموع يقول: ادخل يا حبيب "حم" أنا شعوانة، أرسلتُكَ إليَّ وقد علمت أن أرغفة الماء قد نفذت لديك فلم يبق لك من زاد تتزود به في الطريق إلى محبوبك غير الدموع.

ودخلت البيت فسمعت جدرانه تنطق بالذكر، وسقفه يمطر ميامر التسابيح، وأرضه تنبع بهمهات هو..هو.. وفي أجوائه تصدح عندلات المسك. ورأيت عينا شعوانة تهطلان الدمع بأربع نجوماً متبادرة، ووجهها كسماء ربيعية مشرقة باكية، وصدرها متوقداً كشمس تولد في مجرة قصيّة.

قلت: لو رفقت بنفسك يا شعوانه.

فبكت وقالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي الدماء حتى لا تبقى في جسدي جارحة فيها قطرة دم، وأنّى لي البكاء.

وسألتها: أ هكذا يفعل الحب بصاحبه؟

قالت: بل الخوف من عدم لقاء الحبيب. يا حبيب "حم" إن كثرة الدموع وقِلّتها على قدر احتراق القلب، حتى إذا احترق القلب كله لم يشأ الحزين أن يبكي إلا بكى، والقليل من التذكرة يحزنه.

ثم قالت: من استطاع منكم أن يبكي فليبك، وإلا فليرحم الباكي، فإن الباكي إنما يبكي لمعرفته بما تكشّف لـه وأتى إلى نفسه.

ثم راحت تنشج بصوت يحرِّق قلوب الخائفين وتنادي:

- يا موتَى وبني الموتى وإخوة الموتى..

وأخذت تنوح منشدة بصوت عذبٍ عميق حزين:

يؤمِّل دنيا لتبقى لـه ... فوافى المنية قبل الأمل

مشيا يروِّي أصول الفسيل ... فعاش الفسيل ومات الرجل

قلت لها: ما رأيت مثلك عاشقاً اندلعت الحرائق في قلبه يا شعوانة.

قالت: ومن شعوانة؟ وما شعوانة؟ أَمَة سوداء عاصية. ثم راحت تبكي وتنشد:

لقد أمِن المغرور دار مقامه ... ويوشك يوما أن يخاف كما أَمِن.

وسألتها وأنا أقدم لها كأس ماء من خابية في زاوية البيت:

- أما من دواء لهذا الداء يا سيدة الدمع؟

تناولت جرعة من الكأس وراحت تبكي وتقول بالفارسية: أنا العطشى من حبه لا أروى.. أنبَت لكل داء دواءً في الجبال، ودواء المحبين في الجبال لم ينبت.

هبت نسمة عابرة فأطفأت السراج، ورأيت عجباً!

كانت دموع شعوانة تسبح في فضاء البيت وترسل شعاعاً سحرياً مموسقاً، والبيت يتسع ويتسع كلما تهاطلت من عينيها الدموع الشعشعانية.

وبقي البيت مضيئاً لشعوانة حتى طلعت الشمس..!

لم أكن أعلم من قبل أن دموع العاشقين تضيء..!

خرجت من قوس الدموع حائراً أريد القوس السابعة.
جاءني هاتف أن اقصد رابعة فاتجهت إلى البصرة، ودخلت معتكف رابعة العدوية فرأيتها قائمة في محرابها تنشد:

- إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنك رب تستحق العبادة

- إلهي..

أحبك حبين حب الهوى وحبـاً لأنـك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم التفتت إلي وقالت: ما جاء بك إلى هنا؟

قلت: سمعت هاتفاً يقول اقصد رابعة.

قالت: تلك رابعة الشامية زوجة أحمد بن أبي الحواريِّ وأنا أشاركها في اسمها واسم أبيها وعموم حديثها، فاقصدها قبل أن تغرب شمس قوسك.

قصدت الشام قاطعاً بادية النفس اللغوب حتى تراءت لي الغوطة بأشجارها وبساتينها وكرومها. وبردى ببردته الخضراء وشالته الزهراء المنسوجة بخيوط الفضة والذهب. وقاسيون المعمم بالنور والغمام .

وصلت الشام فوجدت الباب الشرقي قد أرتجه الحراس، فقلت: أبيت الليلة أمام الأسوار في العراء، وكان البرد قارساً فاعتراني هم وحزن، وفجأة فُتِح الباب ونادى الحارس: ادخل أيها الغريب فقد جاءنا هاتف من المَلِك بأمرنا أن نفتح لك الباب ونرشدك إلى بيتها. فعجبت كيف درى الملك بأخباري، وأنا الحريص على ألا أبوح بأسراري.

أخذني مرشدي بين دروب المدينة، ثم صعد بي الجبل المعمم بالنور والغمام، ثم أشار إلى بيتها في القمة وقفل راجعاً.

وقفت أمام بيتها فسمعت شعراً وغناء وصوتاً تلاونت لحونه بدَمَّاتِ الشوق وتكّات العشق.

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

كأني لم أبرح البصرة!

ناديت: يا رابعة.

لم يجبني أحد، فبقيت واقفاً ساعة وبعض ساعة، ثم جاءني الصوت: ادخل. فدخلت.

قالت: إنما منعني من أن أجيبك أنَّ قلبي كان في تلك الساعة ممتلئاً فرَحاً بالله.

قلت : يا رابعة قطعت الفيافي والقفار لأحظى بلقائك فحدثيني.

قالت: سل ما بدا لك يا ابن "حم".

قلت : ما طعامك وشرابك؟

قالت: الذكر والتسبيح. وإني لأَضنُّ باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسي، وإني لأرى ذراعي قد سمن فأحزن.

قلت: أ صائمة أنت اليوم؟

قالت: ما مثلي يفطر في الدنيا.

قلت: أتحبين زوجك وتقضين حقه.

قالت: لا يجتمع محبوبان في قلب واحد. لست أحبه حب الأزواج وإنما أحبه حب الأخوان، وإنما رغبت فيه رغبة في خدمته.ومن خدمته أن أقضي حق الزوج حتى يرضى ، ولما وجدت أني مقصرة في ذلك فقد كان لي سبعة آلاف درهم أنفقتها عليه فزوجته، وكنت إذا طبخت قِدْراً قلت: كلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح، ثم أطعمه اللحم وأقول له: اذهب بقوَّتك إلى أهلك.

ولما رأيت أني أثقل عليها بأسئلتي انتحيت جانب البيت صامتاً أستمع إليها، فقامت إلى محرابها وسمعتها تقول:

ـ إلهي وسيدي ومولاي لو أنك عذبتني بعذابك كله لكان ما فاتني من قربك أعظم عندي من العذاب، ولو أنعمت عليّ بنعيم أهل الجنة كلهم كانت لذة حبك في قلبي أكثر.

ـ إلهي وسيدي ومولاي. ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك، ولكن لأنك رب تستحق العبادة.

وسمعتها تقول:

ـ ما سمعت الأذان إلا ذكرتُ منادي القيامة، ولا رأيت الثلج إلا رأيت تطايُرَ الصحف، ولا رأيت جراداً إلا ذكرتُ الحشر.

وسمعتها تقول وهي تشير بيدها:

ـ إني أرى الجن يذهبون ويجيئون، وأرى الحور العين يستترن مني بأكمامهن.

وسمعتها تقول:

ـ إلهي ..غارت النجوم، ونامت العيون، وغَلَّقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

ثم غلب عليها الخوف ، وراحت تمر بأحوال، وسمعتها في حال الحب تقول:

حبيـب ليس يعـدله حبيـب ولا لسواه في قلبـي نصيـب

حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يغيـب

وسمعتها في حال الأنس تقول:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في حال الخوف تقول:

وزادي قليل ما أراه مبلغي أ للزاد أبكي أم لطول مسافتي!

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي فيك؟ أين محبتي!

ولما أطل السحر من مشكاة الليل، وتَهيأْتُ للرحيل، سمعتها تقول:

ـ اللهم .. هذا الليل قد أدبرُ، وهذا النهار قد أسفرُ، فليت شعري هل قبلتَ مني ليلتي فأهنّئ أم رددتها عليَّ فأعزّى، فوعزّتك لهذا دأبي ودأبك أبداً ما أبقيتني، وعزَّتك لو انتهرتني ما بَرِحت من بابك، ولا وقع في قلبي غير حبك وَجودِك ورضوانك.

معراج النون

11

خرجت من معراج ياء العالمين قاصداً نون التكوين فلقيتني على شاطئ بحر الأنوار " **يس** ". كانت قد ضفرت شعرها بجدائل من قرون الأولين، وحمَّرت خديها بالنور اليقين، وكحلت عينيها بتنزيل العزيز الرحيم. وعلى كتفيها ألقى الوشّاح الأكبر وِشاحَ كن فيكون.

ورأيت الشمس على صدرها تجري لمستقر لها، والقمر يعترش المنازل حتى عاد كالعرجون القديم.

ورأيتها تكشف عن ساقيها ثوبَها السندسي فيميس بينهما قصر ممرَّد من قوارير، حسبتُه لجةً فلجَّ بي الشوق من جديد إلى الإبحار نحو المعشوق.

كانت تحمل في يدها كأساً من شهد مصنوع من تسابيح نحل القبة انماست فيه أنفاس المعشوق، قدمته لي في ابتسامة أضاءت المشرقيين، وحيتني وقالت:

- أرسلتني "حم" لأدلك على الطريق إلى جبل الجوديِّ، فهذا البحر قد انسلخ منه الليل، فاندلعت فيه حرائق الأنوار، وأصبح هشيم أضواء تكوَّرت وتكوثرت. وأنا أخشى عليك أن تعشى بالنور فتشرَق، أو تجرفك تيارات الحبور فتغرق؛ ولا بد لك من دليل.

- وهل الطريق إلى الجودي طويلة؟

- تصل إليه قبل أن يرتد إليك طرفك.

ثم تضاحكت وأردفت: لكن طرفك مسمَّر بكلاليب الأنوار.

صعدنا إلى السفينة، وجذبْت مرساتها، ونشرْت أشرعتها للريح، وأبحرنا في بحر الأنوار. خرج بلبل الدار من قمرته وحط على السارية، وانطلق مغرداً.

يا هَنـا..يا هَنـا..
كاتبَ أسرار الغيب
في مصحف العشق
يا هَنـاهم
نُجّار نوافج المسك

أصيحاب الخلوة
يا هَنـا..
بيّاع الحلاوة
بين بيوت الحسان
هوهو
ارفع يا جميل هذا النقاب عن وجهك
فقد كثر قطاع الطرق
وأخشى أن تقع نوارس العمر
في مصائد الأيام
يـا ضنى
يـا ضناه
من قطع الفيافي والقفار
ولم تكتحل عيناه برؤية المحبوب
هوهو
أيها المعشوق
الذي لا تسعه أرضه ولا سماؤه
ويسعه قلبي .. أنا
أنا.. عبدك المؤمن بالرضى
بما زوَّدتني من سكر العشق
في جحيم هذه الحياة
وبرغم ضنكي وضناي
في جحيم الحياة
أنا الرافه وهم الجياع
هوهو
يا جميل
أنا المريض فعدني
وأنا الجائع فأطعمني
وأنا الظامئ فاسقني
وأنا المظلوم فانتصر لي
يا جميل
أسمعني حفيف رضوانك
وترنيمة الشفاه بالقبل
وصوت قهقهة الجام السماوية
لأسكر.. وأسكر
وأردد

يـا هنـا سالك درب الغرام
يـا هنــاه
يـا هنـاي

التفتُّ إلى "يس" يرنحني السكر بكاسين، كأس جمالها وكأس الصوت، وأنا أتلمظ طعم الغناء في شفتيّ.

- "يـس" ، وهذا الجمال المبين، ما رأيت بلبل الدار يغني مثل هذا الغناء منذ أن غادرت دار "حـم" .

- ما هذا بصوت طير. إنه صوت إنسان ينسلخ من أرياشه. قالت "يـس".

فجأة هاج البحر وماج وأزبد بالسنا، واصطخبت عواصف الأضواء، وهبت عاتيات الأنوار، وأصبحنا محاصرين بلجة الحضور، فعشيت عيناي عن النظر، واضطربت السفينة، وأفلتت الدفة من بين يديّ، فتناولتها "يس"، وأحكمت الاتجاه، وقالت:

- هذا بفعل الجودي، إنه المغناطيس الطارد. من لم يكن عشقه أقوى من مغناطيس هذا الجبل فإنه يضيع في اللجة ويغرق.

مؤذِّن الغرام

ثم راق البحر حتى سمعت ثرثرة الأمواج وضحكاتها، وصوت تكسر الأنوار الهابطة على أديم المياه، وتنفس الأنوار الصاعدة من مجتمع الماء إلى مجتمع السماء. ولاحت عن بعد أضواء الجوديّ، ومنارة الشاطئ يخفو ضوؤها ويخفق، فهتفت:

- أسرعي "يس" ، أيتها الفاتنة المجدولة الضفائر بجدائل من قرون الأولين، فقد لج بي الشوق إلى لقاء الأم والأخت والحبيبة "حـم".

- لن يسمح لنا بالرسو في الميناء قبل أن يصعد المنارة مؤذِّن الغرام ويؤذن لصلاة الفجر.

وجلست قلقاً أنتظر، ثم خطر لي أن أسألها:

- ومن مؤذن الغرام؟

- بلال ذو الصوت الندي.

- ومتى يؤذن؟ وكيف يعرف الميقات؟ وقد انسلخ الليل من قماشة النور، ونفض الواجد غبار الزمن عن رداء الوجود.

تبسمت "يـس" وطفقت ، بأناملها التي ما أبدع الله مثلها في التكوين، تحل ضفائرها ، وتجرِّد جدائلها، وتمشط شعرها، فتتساقط منه قرون الأولين. ثم تناولت جديلة حبشية اللون والحفاف، وضعتها بين يديّ، ولما لامستها أناملي تحولت إلى سبحة زمن مفقود، رحت أطقطق حباتها ذات الألوان والأشكال، حتى إذا استقرت على سبابتي حبة أينوسية، انداحت أمامي الرؤى فرأيت بلالاً يسعى إلى دار الأرقم، يقف هنيهة يدبِّر أمراً

ويتفكر.
هذا الباب الخشبي
فرقان هدى وضلال
وعبورٌ نحو المشهود
وَتَفَكّر..
في الخارج دنيا أثقلها االكفر، الظلم، القهر
في الداخل دنيا نوَّرها الحقُّ،العدل، الطهر
وتفكّر..
هلاّ اقتحم العقبة
وتخطّى صفوان العتبة
سأعلّمهم أسياد الوهم، البطش، العَتَمة
أن العبد الحبشي الأسود
إنسان يتفكر
يختار طريقا ويقدِّر
ويظنون العبد الأسود
لا يعرف إلا الحلْبَ
وأعمال الصرّ
نصف من إنسان
نصف من حيوان
وهُم القوة
وهُم الشعب المختار
وأميةُ
لن يتوقف عن قصف العالم
حتى يحتل الأرض
***
أي بلال
يا ذهباً أسودَ
يلوي عنق الطاغوت
هلاّ
أخبرت ملوك الذهب الأسود
وقياصرة الأقوال الجوفاء
والطبالين البلهاء
في أعراس الخطب الطنانةِ
أن النار الســوداء
تمتد إلى ما تحت أسرتهم

وبأن قرون الشيطان
تغزو جزرَ الإيمان
تحتل جميع الشطآن
كي تُرْكِز أعلام اللات

ورأيت ، ثَمّ رأيت جسد بلال يمتد على مساحة الأرض المعمورة بالدم مَهيناً مرمَّضا نازفا، واين خلف يدعوه بالسوط والصخر وعناقيد الغضب إلى الفكر اللاّتي الغسقي الواقب. و مع ابن خلف تداعى" **شر ما خلق** " .

انزلقت قدماي على أدراج الزمن فسقطت في قاع المشهد، فوجدتني إلى جانب الجسد المرمَّض أحدث نفسي قائلا:

- ليس لهذا الجسد الممدد على مساحة الأرض المدمّاة ، كي ينبض بالقوة والحياة إلا أن يعوذ برب الفلق، فإن فعل أدرك إلاّ ملك على الناس إلاّ رب الناس، ولا إلـه إلا إلـه الناس. فإن أدرك اهتزت شفتاه بالكلمة، وانطلق سهم أَحَد في مقاتل الطاغوت. ووجدتني أصيح بأعلى صوتي صيحة ارتجت لها شطآن الجودي واضطربت اللجة، وتقافزت الأسماك والحيتان من الماء.

من يوقظ الناس إلى الصلاة؟
من يوقظ الناس إلى الفلاح؟
من يوقظ الناس إلى خير العمل؟
من..؟
من غيرك يا بلال؟
يا ذهباً أسود
يفقأ عين الشرك الأسود
بسهام الأحدية
هذا عصر الشرك الأسود
والدجال
يزحف ..يغزو
يرمي بقنابله
بمصارفه
بالفكر الغسقي المظلم
بالإرهاب
أجواز الجوزاء
ويكفِّن هذي الأرض العطشى للحب
بالمهل وبالنار
. . . .

أُبصر
في ديجور العصر التتريّ
في قاع الزمن الهبلـيِّ
بلالاً ينهض من جمر الرمضاء
ويؤذن في الناس
أبصر
بدراً
قادمة من آماق المجهول
ترفل بالنصر المأمـول
وبلالاً
في معركة الإنسان الكبرى
يصرخ:
" رأس الكفر أمية. لا نجوت إن نجا "
أبصر يوماً
تتهاوى فيه عروش الأمراء
من قد ولغوا في أدماء الشعب
أبصر يوماً
يتساقط في معركة الحق الموعود
جنرالات الحرب
أبصر يوماً
يتنسم فيه البؤساء
يتفيـأ فيه الفقراء
يتظلل فيه الضعفاء
بِوَريق السدرة..
والصوت ينادي:
لمن المُلْك اليوم؟
لله الأحد القهار

استعادت "يـس" جديلتها مني، واتجهت بالسفينة إلى الميناء وقالت:

- لا تحزن يا ابن "حـم"، فإن الصوت يفتق براعم النور من سدفة الظلمة، وهاهو مؤذن الغرام يصعد المنارة ليوقظ أهل الهوى إلى صلاة العاشقين.

على الجوديّ

عندما هبطنا إلى الشاطئ حدث أمر عجب!
فقد تشظت "يـس" وأصبحت أباديد نور انماث في مزدحم

الأضواء والظلال والأطياف.

وأما بلبل الدار فقد أخذ يخلع لباس الريش حتى استوى شاباً في وجهه نضرة النعيم، رحت أنظر إليه فأراني، وأنظر إليّ فأراه، ثم خطا نحوي مشوقاً، وخطوت نحوه صامتاً، وعبر إلى فضائي، وعبرت إلى فضائه، فأحسست أني أذوب.. أذوب..ثم أفقد هيولاي.

- لقد أصبحت مؤهلاً لصعود الجودي ولقاء الحبيب.

كان هذا صوت "حـم"، لقد عرفته، إنه كزغردة الناي.التفت فرأيتها تبتسم لي وتقول:

- قلت لك سأنتظرك هنا. كان لابد لك من هذه الرحلة الطويلة ، ومن تعرضك للأخطار.

العشق أمر صعب، وأنا لم أستطع أن أتخلى عنك طوال هذه الرحلة، فقلب الأم دائم الخفقان.

- يا أمّاه إني رأيت عَجبا! رأيت "يـس" نوّارة صبح مخضلَّة بالندى ترافقني من الشاطئ إلىالشاطئ، ثم تتشظى وتصبح أباديد نور؟

- كل امرئ في هذه القرية : إما أن يكون في التكوين ذراتٍ من نور تتجمع بالقدرة وتتشعشع بالقدرة فيزداد الكون ألقاً بهذه التحولات.

وأولئك هم أهل العشق والجمال والكمال، هم نور الكون، ونورهم بعض من نور الأنوار.

وإما أن يكون في التكوين ذراتٍ من ظلمة تتجمع ثم ترتص ثم تغوص في أعماق الجحيم، وظلمتهم بعض من ظلمة الشيطان.

وأولئك هم الطاغون مالاً وسلطاناً وكفراً. وأولئك هم الغائصون في الحمأ المسنون.

وإما أن يكون في التكوين ذرات من نور وذرات من عتمة عارضة، ولا بد لكلٍ من هؤلاء كي يخلص إلى هذا أو ذاك، أن يختار ما بين الرحلة أو المقام. أما وقد اخترت الرحلة، ورأيت ما رأيت، وسمعت ما سمعت، وزرعت وحصدت، وتجردت عن الغواسق، ولاحت لك البوارق، فتهيأ لدخول السرادق، فحبيبك هناك، في صدر المجلس، ينتظرك، والشوق في عينيه، أن تأتي إليه، فتسلم عليه، وتجلس.

- يا أماه، وما قصة بلبل الدار الذي خلع الريش، ثم عبر إلى فضائي ، وعبرت إلى فضائه؟

- تلك هي ذرة النور التي رافقتك مفارقة، ثم عادت إليك معانقة.

- وأنت يا أختاه، أيتها الحبيبة، هل ستتركينني وترحلين؟

- سأكون معك في صعود هذا الجبل، فهو شاهق شائك وعر المسالك، حتى إذا وصلت إلى القمة، حيث سرادق من

تهوى منصوب لاستقبال العاشقين، ودَّعتك لأصحب سالكاً آخر من أبنائي.

طفقنا نصعد الجبل خفافاً، نسير بأقدام لا تلامس الأديم، فكأننا نطير ولا نطير.

مررنا بوديان يبزغ الفجر من قيعانها. وصخور راسيات كالأطواد، على كل صخرة ملك راكع أو ساجد باسط جناحيه. وكهوف انقطع فيها أهل الذكر.

واجتزنا أنهاراً جاريات تتحدر مياهها كأفراس من عقيق، والنوتي على الشاطئ ينادي : مَن عاشق أوصله إلى معشوقه؟

وعبرنا حقولاً قد أينعت سنابلها وما من حاصد، إذا هب النسيم ماست وتأوهت عشقاً وحنيناً، وإذا مر عليها نورج الصباح تساقط منها قمح النور.

ودخلنا غابات ملتفة الأشجار، أورقت بالرحمة، وأثمرت بالغفران، ومن أغصانها تتهاطل التسابيح.

وكنا كلما أحسسنا بالتعب أشارت حـم ببنانها فسارعت سحابة عابرة تظللنا بفيئها الوريق.

كان الجوديُّ مزنراً بسبع أقواس من الكويكبات النورانية التي تدور حوله في نظام متقن، ولكنك لا ترى غير هالات من الأنوار تدور وتدور، ما بين كل قوس وقوس مسافة سبع سنين من ميقات الوقّات الأكبر. وسألت عن سر هذه الكويكبات ذات الألوان والأنوار، وقد لقّنتها في الدرس صخوراً تسبح في الفضاء، فقالت لي "حـم": هذه الكويكبات أنفُسٌ تسبح.وكل كويكبة مجمع أرواح، ولكل كويكبة لون منوَّر بلون الصفة التي تجمع هذه الأرواح. والأسماء والصفات الحسنى في علوم الأرض تسعة وتسعون، أو محدودة حسب ما يستوعبه الفهم القاصر، وهي في علم الحقيقة لا تنتهي، ولو أن ما في الشجر أقلام والبحر مداد يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت هذه الصفات ولا هذه الألوان والأنوار.

كنا مازلنا في القوس الأولى وعلينا أن نقطع الأقواس السبع لنصل إلى السرادق في قمة جبل الجودي، فعظم الأمر عليّ وأحسست بالحزن لطول الطريق إلى المحبوب.

تبسمت "حـم" وقالت: إن تجرّدت من حزنك وصلت إليه قبل أن يرتد إليك طرفك.

وتابعنا المسير..

اطلعت ونحن نجتاز الأقواس السبع على عوالم وخلائق وكائنات ما أخبرنا عنها مخبر، ولا حدثنا عنها كتاب، وكلٌّ في فلك التسبيح يسبحون.

ورأيت في واحدة من هذه الأقواس كائنات شفافة غريبة الأشكال والألوان سألت "حـم" عنها فقالت: إنها الأفكار

والخواطر والتصورات والأحرف والكلمات والأحلام الخيرة النورانية التي تخطر في بال كل مخلوق أو ينطق بها لسان أو عضو من الأعضاء، من إنس وجن ونبات وحيوان وطبيعة وأجرام، تتشكل هنا في صورها الحية ، لأنها ذات حياة، وتنتظر دخول العاشق إلي السرادق لمقابلة معشوقه فترافقه في الدخول، فهي جنود مملكة العشاق، ومِن غيرِها لا يكون عاشق إلا مدَّعيا للعشق.

وبحثت عن أفكاري وخواطري وتصوراتي وأحرفي وكلماتي وأحلامي فرأيتها تهرع إليَّ سرباً من بعيد في صحائف مما سطره قلمي وبياني، ودموعي وشجني، وآلامي وعذاباتي، وما ناجيت به حبيبي في سري وعلني. ورأيت أبي وأمي وجدي الرسول يُزْجون السرب كي يصير إليَّ في رفة هدب قبل إطباقتها. فهم يعلمون مبلغ ما أعاني من تباريح العشق.

قلت لشقيقة الروح: وأين هي الأنفس والأعمال والأفكار والخواطر الأخرى ذات الطبيعة الظلمانية؟

قالت: إن لهذا الجبل سنخاً يماثله غائصاً في أعماق الظلمات حتى قرارة الجحيم، وحوله سبع أقواس مظلمات.

هنـا الدفء والحركة والغنـاء

وهناك البرد والصمت والسكون

هنـا أهل الصفوة

وهنالك أهل الجفوة

هنا العاشقون المقربون.. فهم في فلك الجمال يعرجون

وهناك الكافرون المبعدون.. فهم في جثة الظلام لاصقون

عندما وصلت قافلة عمري المهيض بالآلام والشجون، والعذابات والدموع، المجرح بالنكران والطعون، سمعت صوتاً هاتفاً يقول: أيها العاشق قد أبدلناك بكل ذرة من ألم الطريق سبع سنابل من الرضوان العميم، في كل سنبلة مائة حبة من النعيم المقيم.

قالت "حـم" ونحن نجتاز القوس السابعة: أما وقد جاءك صوت الرضى، ولاحت لك أنوار سدرة المنتهى، وتهاطلت عليك غصونها، فاضرب خيامك تحت أفيائها، وتقرب بالصلاة والغناء والدعاء، حتى إذا ظهر السرادق وانكشف الحجاب، فادخل فإن محبوبك المستوي على عرش الجمال ينتظرك لهذا اللقاء. فإذا طال الانتظار ولم تستطع صبراً فهذه الجنة أمامك قد أزلفت، ادخلها بسلام.

قالت هذا ، ثم طبعت قبلة على جبيني، وودعتني وفي عينيها دمعتان من خمر وفرح، ثم مضت.

لقاء الحبيب

ضربت خيمتي في ظلال السدرة، وأوسعتها لسكنى القافلة،

وجعلت مقعدي أمام باب الخيمة أستروح نسائم الأفواح الناغمة على الغصون.

سجدت والكاس في يدي فتهادى النور على شفتي، وأشرقت الخمرة في عينيّ، ورفرف في الكاس طائر الخيال فلاحت لي الجنة بأسوارها وقصورها وأنهارها الجاريات وحدائقها البابلية المعلقة. وعلى الشرفات حور من بلور يمشطن شعورهن بأهداب العاشقين فتتساقط منهن فراشات من قُبَل ونور وعطر. ووصل إلى مسمعي خطوات رابعة على بلاط الجنة، وغناء الشاديات من الحور العين في مقاصف الفردوس المزدحمة بالشّرب والشراب.

وسمعت ضحكات العشاق تحت الأشجار، وصوت أجنحة القبل المرنَّقة، وكلمات الغزل يلاحق بها الشباب العابثون صبايا الجنة.

ومن بعيد لوَّح لي رضوان بيديه ودعاني للدخول، وأوسع فتحة الباب، وقال: اشتاقت الجنة إليك. فلوّحت لـه بالكاس المترعة اشتياقاً وقلت:

يا رضوان ما لهذا ركبت درب السالكين ، ومن يذهب للقاء الحبيب لا يطمع في طبق الفاكهة.

يا رضوان لو حجبني حبيبي في الجنة عن رؤية وجهه لاستغثت من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

يا رضوان ألا ترى أن اشتياقي إذا تحرك أضاء النور ما بين السماء والأرض، وهو في حركة دائبة، وأشهد أنَّ حبيبي لأشْوَق.

يا رضوان أنا المحب الذي حملتني إلى لقاء الحبيب، على طريق كثيرة المهالك، شظيةُ شوق من جزء واحد توزعت شظاياه بين الناس جميعاً، ويحمل حبيبي تسعة وتسعين جزءاً كاملاً من الشوق إلى لقائي، فهلاّ وَدَعْتني صابراً كي أظفر بنعميات تلك الأشواق التسعة والتسعين؟

اصبري أيتها النفس الضّابحة التوّاقة
فعما قريب يضرب الحبيب
في جناب الرضوان
سرادق الرحمة

أيها الحليم إن عظمت الذنوب، والرقيب إن خفيت الهموم
على ربوة موحشة ما بين ذنوبي وهمومي وقفت حائراً
سرت في الدروب المهلكة حتى انقطعت بي المسالك، وانفرط مربع الجهات الأربع
فهلاّ أرسلت إليَّ برقاً بارقاً من عندك يحملني إليك

سبّوح
أنا طائر الصباح
جئت إليك حاملا في منقاري
تراتيل السوسن المطلول

أنا الناي: منذ قطعت من الغاب وأنا أشكو آلام الفراق
يستمع العشاق والبؤساء إلى نواحي فيبكون ويأتسون
لكن أحداً لم يدرك روح القصب، ولم يبحث عما في باطني من أسرار
لا هواء.. بل هي نار العشق في جوف القصب
ترسل الألحان وتحرق الأستار

أنا ذلك الغزال الذي هراق دمه صياد مليح من أجل سرته المكوثرة بنوافج التمني
وعلى دمي هراق بيغاء الحضرة زيت الورد من قناني الغيب ، وأنا أطرب، وهو يغنّي
على طوف السعادة أبحرت في دمي؛ فدمي لم يذهب هدراً؛ فشذا المسك حملته إلى الجهات الأربع الرياح
هكذ العشاق يشربون كؤوس الراح والأفراح، حين يقتلون بأيدي الملاح

يا غنيّ
هل تقبل من فقير ذي حاجة مثلي
أن يدعوك إلى مائدته
فأنا لا أملك غير هذا القلبِ النابضِ بحبك

ها أنذا أتناول كسرة الخبز اليابسة على مائدتي
أبللها بدموعي ودم العشق
وأدعوك إليها: هلمّ إليَّ يا غوّاث يا كريم
يا مجيب المضطر إذا دعاه

يا قوافل العمر الضاربة ما بين التيه والبحر
ها قد طلعت نجمةُ الصبح، قافيةُ الظلام المضيئة
وها قد لاح طور سيناء
فانتظرنني حتى أكلم الحبيب

يا معلِّم الأسماء وناصر الضعفاء: كلما خرجت من اسمي وقعت في اسمك
تركت القافلة، وغادرت مقبرة العمر ساعياً إليك، واليوم فقيراً جئتك، وأنا ضيفك
وها أنذ على بابك، أضرب على صنج معراجي لأجلك
فمتى تأذن لسيف طلعتك أن يضرجني بدم عشقي آلاف المرات حتى تنفذ الخزائن في الديات و تبقى لك التعزية؟

عدد ذرات النور في المهرجان كلمات الحبيب
كفاغية المسك في ليلة ساجية الحواشي كلمات الحبيب
مثل كوكب دري يوقد من شجرة مباركة كلمات الحبيب
لا تسعها أرض ولا سماء ويسعها قلبي الذي أبلاه العشق، كلمات الحبيب

جاء الحبيب يعودني فرثى لحالي
وبكى فروّى بالدموع ثرى هزالي
فشُفيت من ألم الجراح، فلا أبالي
إلا الفؤادَ، أصابه عشق النصال

إن هذا اليوم ممطر فامش على محيط الدائرة من المساء إلى المساء
ما لهذا العابر المسكين يبلل ثيابه الجديدة!؟ هكذا صاح الحاصدون في الحقول
إلا حاصدة منفردة كانت تحصد السنابل وتغني للحبيب، رأت الأمطار ولم تر الماء
ولأنها وضعت شال الحبيب على كتفيها فقد أظهر الله لها أمطار الغيب

إلهي، سرت في طريقك، وعلى مائدتك أكلت من خبزك
وعلى اليابسة قدت إليك سفينتي
ولأنني بنار حبك احترقت مائة مرة فأنا لا أخشى من النار، ولا أطمع في الجنة
ولكنني أخشى ألاّ تطْلُع على عبدك الحر الموسوم بالعبودية

إلهي، لقد أسريت حتى علا التراب مفرقي، وركبت الطوف من شاطئ ذنبي إلى شاطئ رحمتك
وفي محفل المسرة ارتديت آلامي وتكحلت بدموعي، متزيِّناً لك بنورك
ولما تجليتَ تفجرت ذرة النفس فانتثرت الروح، واندلعت النيران في مدن الطين
إلهي، تركت الكفر للكافر، والزهد للزاهد، أما قلب الفتّاحيُّ فهو الشمس المشرقة بالأحزان وأنوار عشقك

يا خفيّاً في الروح وأنت خارجها، هل من سبيل إليك
الشمس تصفرُّ من محبتك، وتعفر خديها بالتراب كل مساء شوقاً إليك
والقمر السكران في حارات الليل، يسلم الروح كل شهر في سعيه إليك
وأنا- يا عالم الأسرار - مازلت أنتظر علامة تهديني منك إليك

نثر الخريف الذهبَ بين الخمائل، ووضع الشتاء في معاصم الكون أساورَ الفضة
وبرز النصل ملطخاً بدم البراعم الأخضر، وتقافز الربيع فوق القلنسوات الدامية
وألهب الصيف قلوب العاشقين، فاندلعت النيران في غابات الروح
لقد دارت الفصول دورات لا يعلم عددها إلاّ أنت، وأنا أدور خارجها حول بابك

تخضب قلبي بالدم، وفي غير موعد جئت الحبيب،

فحبيبي فوق الزمان والمكان
في الطريق إليك وقعت في بحر الحيرة والاضطراب، وأنت في سترك خلف النقاب
وها أنذا جئتك بآلامي واشتياقي، ولم تتبق وردة على الغصن الذي زرعته
منتظراً على بابك أن تمنحني ورود رحمتك، ويوقظ روحي ربيع طلعتك، لتورق بالفناء فيك

يا ندامى الكاس والذكر .. يا يمام الروح
لم يؤذن ديك الصباح بعد.. ولم يزل في الدنّ خمر
فما لكم تحزمون أمتعتكم وترحلون في الغَرور؟
من يوقظني إذا تعتعني السكر وجاء الحبيب؟

احلولى الزمان، والبلبل الهيمان يصب أغاريده في شفاه الورد
وغزلان الخمائل في مساقط أنداء الغمام ترعى بساط النور
وفتاة القرية العاشقة تنادي من بعيد عازف الناي للشياه

وأنا في الغار، أصطلي على النار في ليلة شاتيةٍ خلَعَت العذار.. منتظراً مطلع الجمال.

مواكب النور تزحف على مفارق الجبال
وصوت أجنحة جبريل يتهادى فوق المنائر الخضراء
ولعروج الروح تنفطر السماء، وببخور السدرة تعطر الملائكة الأجواء
يومئذ يحمل العرش ثمانية لهذا اللقاء

يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية
ها قد لاح السرادق، ونسمت رياح التجلّي، وأقبل الساقي الصبوح فهنّأ وبشّر
واستيقظ إسرافيل بعد قيامة أهل النوى، وتناول الصور معلناً قيامة أهل الهوى
أما أنا فتيممت بصعيد عشقي وآلامي وعذاباتي،

وتوضّأت بدماء حروفي، للقاء الحبيب

تجمعت سحائب الرضوان، وأشرقت شمس التجلّي مشرقة من برج الشرف، وانهمر الربيع من خزائن الحضور، فانداحت سيول الأنوار من غير ستر أوانقطاع، ومَتع نهار القلب، وجابت السماء أجواق المنشدين، وحفت الملائكة بالسرادق.

ناداني الصوت فلبيت
ولما عبرت عتبة باب الحبيب
تحطمت المرآة
ونظرت إلى نفسي
فلم أجد
إلاّ هشيما تندلع فيه
أنوار هوو

29/2/2004

الفهرس

إهداء.....5
معراج الألف.....7
جزيرة الدموع.....11
معراج اللام.....20
جزيرة الكلام.....25
معراج الحاء.....39
ناسك الريذة.....39
معراج الميم.....49
طائر الفرح الأصغر.....49
معراج الدال.....53
مكاشفات صاحب الغار.....54
هكذا تكلم السراج.....58
معراج الهاء.....62
يدور مع الحق حيث يدور.....63
في السوق السماوية.....66
معراج الراء.....68
سورة الإنسان.....68
حكاية الملك المغرور.....78
حكاية بائع الملوك.....79
معراج الباء.....82
بيداء البواده.....84
معراج العين.....88
مرايا الفرح الشارق.....90
معراج الياء.....92
قوس ميمونة السوداء.....92
قوس بردة الصريمية.....93
قوس جوهرة البراثيّة.....94
قوس مريم العابدة.....96
قوس أم محمد.....97
قوس شعوانة.....99
قوس رابعة الشامية.....101
معراج النون.....105
مؤذّن الغرام.....108
على الجوديّ.....112
لقاء الحبيب.....116

□□

كتب للمؤلف

الأعمال المسرحية

ـ مولد النور.	*(ملحمة حوارية شعرية) مطبعة الأصيل. حلب 1971*
ـ ثلاث صرخات.	*(ثلاث مسرحيات) مطبعة المعري. حلب 1976*
ـ السيد.	*مطبعة المعري. حلب 1977*
ـ القيامة.	*(ملحمة حوارية شعرية) دار النفائس. بيروت 1980*
ـ صناعة الأعداد.	*دار ابن رشد. بيروت 1980*
ـ هبوط تيمورلنك.	*دار ابن رشد. بيروت 1980*
ـ عرس حلبي وحكايات من سفربرلك.	*وزارة الثقافة. دمشق 1984*
ـ ليال مسرحية. (مسرحيتان)	*اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1996*
ـ اختفاء وسقوط شهريار.	*اتحاد الكتاب العرب. دمشق1997*
ـ مسرح الريادة. (دراسات مسرحية)	*دار الأهالي. دمشق 1988*
ـ نصوص من المسرح التجريبي الحديث.	*(ثلاث*

مسرحيات)
اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2001

ـ مدينة من قش وفانتازيا الجنون.

(مسرحيتان)
اتحاد الكتاب. دمشق 2003

ـ علي بابا والأميرة شمس النهار.

(مسرحيتان للأطفال)
وزارة الثقافة 2004

ـ سحر المسرح: هوامش على منصة العرض.
(تحت الطبع)
وزارة الثقافة

- سِفر التحولات.(مسرحيتان)
دائرة الثقافة والإعلام. الشارقة . الإمارات 2004

الأعمال الشعرية

ـ مسافر إلى أروى. وزارة الثقافة 1994 دمشق

ـ سيدة الحروف. اتحاد الكتاب العرب 1999 دمشق

قصص الأطفال

ـ مسلسلة أحاديث وقصص. (عشر قصص). دار الكتاب. حلب 1977

ـ مسلسلة حكايات البراعم. (18 قصة) . دار الأندلس. بيروت 1981

ـ مسلسلة الطفل السعيد. (خمس قصص). دار الأندلس. بيروت 1981

ـ مسلسلة أحسن القصص. *(تسع قصص). دار النفائس. بيروت 1981*

التراجم والدراسات الفكرية والموسوعية

ـ خير الدين الأسدي . *حياته وآثاره. الإدارة السياسية للجيش.دمشق 1980*

ـ أمين الجندي. *وزارة الثقافة. دمشق 1988*

ـ ياقوتة حلب عماد الدين النسيمي. *اتحاد الكتاب العرب. 1991*

ـ مدخل إلى علم الجمال الإسلامي. *دار قتيبة. دمشق 1991*

ـ أحياء حلب وأسواقها. *(تحقيق وتاليف) وزارة الثقافة. دمشق 1985*

ـ حلب القديمة والحديثة. *مؤسسة الرسالة. بيروت 1990*

ـ أغاني القبة وقصيدتان. *(تحقيق ودراسة) . مركز الإنماء الحضاري. حلب*

- الموسيقار أحمد الإبري. *مهرجان الأغنية السورية السادس. دمشق 1999*

- أبو خليل القباني رائد المسرح العربي *مهرجان الأغنية السورية. دمشق 2000*

- عمر البطش أمير الموشحات. *مهرجان الأغنية السورية العاشر. دمشق 2004*

□□